

## الفصل الثاني

### أغراضه الشعرية

#### تمهيد

نظم طرفة في مختلف فنون الشعر المعروفة في العصر الجاهلي، من غزل، ومديح، وهجاء، وفخر، ووصف، وحكمة، ولوم، وعتاب، وحنين.

بيد أن هذه الأغراض تتفاوت لصوقاً بنفسيته، واستحواداً على فكره وفنه؛ فمنها ما تغلغل في أعماق نفسه، واستبد بلاعج مشاعره، كالغزل، والفخر، والهجاء، والحنين. ومنها ما استأثر بنصيب وافر من عقله وتجاربه وفنه، كالوصف والحكمة.

وفيما يلي عرض لهذه الأغراض كما انطبعت في قريحة طرفة، وانسابت شعراً يعكس ما دار في خلدته من أفكار، وما اعتلج في نفسه المنفصلة من أحاسيس ومشاعر، وأبدأ بالغزل.

## الغزل

سبق القول إن شخصية طرفة التي تفتحت على الحياة الحضرية المترفة في البحرين، بعيداً عن التوجيه والرعاية والزواج، يلقيها الأب في رُوع ابنه بين الحين والحين، يحيط بهذه الشخصية المفتحة رفاق السوء، مستغلين يَتَمَهَا وشرفَ محبتِها وسخاءَ كَفَّها، استوت شخصيةً لاهيةً عابثة، عاكفة على اللهو والمجون والشراب والتبذير.

وطبعي أن ينصرف صاحب هذه الشخصية للغزل، ويأنس بمجالسة النساء، والتحدث إليهن، ونظم رائع القريض في التشبيب بهن، والتغني بمحاسنهن: كانت نشأة طرفة إذاً، والظروف المحيطة بتكوين شخصيته، عوامل هامة في تفجّر ينابيع النسيب في نفسه الشاعرة الفتية الغضة، المشرّبة للغيد الحسان، التواقة أن تسكب في سمعهنّ صدى خفق قلبه المفتّح على الحب، المتطلّع إلى حياته الظليلة الوريقة المنتشية باللذات.

ومن ثم أقبل طرفة على التشبيب والتغني بحب النساء وجمالهنّ، فشبب بعدد من النسوة، هنّ: خولة، هرّ، ماوي، هند، ابنة مالك، سلمى.

وتشبيب طرفة متركّز في مطالع قصائده، وهو لونان: الأول: الوقوف على الأطلال، وما يتصل به من وداع ورحيل،.

والثاني: التغزل بالمرأة.

## أ- الوقوف على الأطلال:

لطفرة وقفات على الأطلال، استهل بها قصائده، بعضها تقليدي، كقوله في مستهل معلقته<sup>(١)</sup>:

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِبُرْقَةٍ نَهَمَدِ      تَلُوْحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ  
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيْهِمْ      يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلَّدِ

وقوله في القصيدة الثالثة<sup>(٢)</sup>:

أَشْجَاكَ الرَّبْعُ أَمْ قِدْمُهُ      أَمْ رَمَادُ دَارِسٍ حُمَّةُ<sup>(٣)</sup>  
كُسْطُورِ الرَّقِّ رَقْشُهُ      بِالضُّحَى مُرَقَّشٌ يَشْمُهُ<sup>(٤)</sup>

وبعض هذه الوقفات زاخر متدفق بالشعور العرم الحار الصادق، وبخاصة عندما تكون هذه الوقفات مقدمات لموضوعات تعمقت نفسه، ولا مست شغاف قلبه، وأذكت أوار الانفعال في كيانه، كقوله<sup>(٥)</sup>:

قَفِي وَدَعِينَا الْيَوْمَ يَا ابْنَةَ مَالِكِ      وَعُوجِي عَلَيْنَا مِنْ صُدُورِ جِمَالِكِ  
قَفِي لَا يَكُنْ هَذَا تَعَلَّةً وَصَلِنَا      لَبِيْنِ، وَلَا ذَا حَظَّنَا مِنْ نَوَالِكِ<sup>(٦)</sup>  
أَخْبَرِكِ أَنَّ الْحَيَّ فَرَقَ بَيْنَهُمْ      نَوَى غَرْبَةً ضَرَارَةً لِي كَذَلِكَ<sup>(٧)</sup>  
وَلَا غَرَوْ إِلَّا جَارَتِي وَسُؤَالَهَا      أَلَا هَلْ لَنَا أَهْلٌ؟ سُئِلْتَ كَذَلِكَ<sup>(٨)</sup>

(١) ديوانه بشرح الأعلام: ٥.

(٢) المصدر السابق: ٦٨.

(٣) الربيع: عمل القوم زمن الربيع. والدارس: الذي ذهب أثره. وجمعه: فحمه.

(٤) الرق: الكتاب. رقصه: زينته. وقوله «بالضحى»: أي رقصه في وقت الضحى، وذلك أحكم لصناعة التريش. ويشمه: ينقصه ويزينه، ويجعله كالوشم في المعصم.

(٥) الديوان: ٨١.

(٦) يقول: لا يكن إعراضك عنا وترك التعرّيج علينا عند البين سبباً لقطع وصالنا، ولا يكن حظنا من نوالك القطيعة والهجر.

(٧) نوى غربة: جهة بعيدة.

(٨) ولا غرو: ولا عجب. وسئلت كذلك: دعا عليها بالغربة، أي صيرك الله غريبة مثل.

تَعَيَّرُ سَيْرِي فِي الْبِلَادِ وَرِحْلَتِي      أَلَا رُبَّ دَارٍ لِي سِوَى حُرِّ دَارِكِ (١)  
وَلَيْسَ أَمْرٌ أَفْنَى الشَّبَابِ مَجَاوِرًا      سِوَى حَيْهِ إِلَّا كَأَخْرَ هَالِكِ (٢)

إنها وقفة وداع موحية منذ البدء بنفسية طرفة المتألّمة الحزينة الملوّعة بفراق الأحبة، وكأن ابنة مالك التي طلب إليها أن تقف لتودعه رمز لكل أحبته في دياره، راح يسكب في سمعها ما لهج به قلبه من عواطف الألم والحزن لفراقهم وفراق مغاني شبابه، ومطرح لهوه، ومراتع صباه.

إنها غربة بعيدة ضرّارة للحي كلّه، وله بالذات، وليس أدل على ما كان يعتلج في نفسه من مرارة وأسى من دعائه على جارتها التي ينزل بجوارها أن تُبتلى بما ابتلي به، إثر سؤالها إياه: أمالك أهل تأوي إليهم؟ وإنه لسؤال فجر في حناياه تباريح الشوق للأهل، وأثار لواعج الحنين لكل شبر من ديارهم وربوعهم، فدعا عليها أن تذوق ما ذاق من ألم الغربة ولذعة الفراق، وتُسأل السؤال الذي سأله.

ويكون جواب طرفة على سؤالها إياه وتعبيرها له بتشرّده في البلاد ورحلته الدائمة التي لا تنتهي، آهة حريّ يصعدها من الأعماق:

أَلَا رُبَّ دَارٍ لِي سِوَى حُرِّ دَارِكِ

وكم في عبارة «أَلَا رُبَّ دَارٍ لِي» من شحْن شعورية، تفيض بها نفس المغترب المحزون الملوّع المشتاق!

ويؤوب بعد ذلك إلى نفسه الكثيرة التي هاضتها الغربة القاتلة، وتجلّت لها قيمة الإنسان في دياره بين أهله وعشيرته، حيث يعرفه الناس، ويحفظون قدره ومقامه، فيصوّر وقع الغربة في حسّها، فلا يجد ما يقوله إلا: إن الذي يقضي شبابه في غربة عن حيه كشخص ميت، لما يلقي من الوحدة والوحشة والذل والهوان.

ونراه في هذه القصيدة يكثر من الأداة (ألا)، وهو إكثار له دلالة النفسية، إذ

(١) حرّ الدار: وسطها وأكرمها.

(٢) كأخر هالك: أي ميت لما يلقي من الذلّ.

يتكئ على هذه الأداة في بوجه بخبيء القلب، وتصعيده آهات الحزن من أعماق النفس الملدعة المكلومة.

ومن وقفاته الظللية الموحية بكآبة نفسه، المعبرة عما يمور فيها من حزن قوله<sup>(١)</sup>:

لِهِنْدٍ بِحِرْزَانِ الشُّرَيْفِ طُلُوءٌ      تَلُوحُ وَأَذْنَى عَهْدِهِنَّ مُجِيلٌ<sup>(٢)</sup>  
وَبِالسُّفْحِ آيَاتُ كَأَنَّ رُسُومَهَا      يَمَانٍ وَشْتَهُ رَيْدَةً وَسَحُولٌ<sup>(٣)</sup>  
أَرَبَّتْ بِهَا نَأْجَةٌ تَزْدَهِي الحَصَى      وَأَسْحَمُ وَكَأَفِ العِشِيِّ هَطُولٌ<sup>(٤)</sup>  
فَفَيَّرُنَّ آيَاتِ الدِّيَارِ مَعَ البَلَى      وِلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ كَفِيلٌ  
بِمَا قَدْ أَرَى الحَيِّ الجَمِيعِ بَغْبِطَةً      إِذَا الحَيِّ حَيٌّ وَالحُلُولُ حُلُولٌ<sup>(٥)</sup>

إنها أطلال هند، أتى على أدنى ما عهد فيها حول كامل، فإذا هي رسوم دارسة، لعبت بها الرياح الهوج، وانسكب فوق ربوعها المزن الهتون، فتغير فيها كل شيء، وهنا تندد من الشاعر عبارات تحمل آهة الأسي واللوعة على الديار وأهلها، في شكل تعقيب حكيم رزين:

فَفَيَّرُنَّ آيَاتِ الدِّيَارِ مَعَ البَلَى      وِلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ كَفِيلٌ  
وبعد أن كان الجميع بغبطة، إذ الحي حي، بكل ما في الحياة والسعادة والبشر من معانٍ، والحلول حلول مقيمون سعداء غاثمون، تبدل كل شيء...

(١) ديوانه بشرح الأعلام: ٧٦.

(٢) الحِرْزَانُ: جمع حريز، وهو الغليظ من الأرض. والشُّرَيْفُ: واد بنجد.

(٣) آيات: علامات. والرسوم: الآثار. ويَمَانٍ: أي ثوب يمان. ووشته: زيتته وحسنته. وريدة وسحول: قريتان من قرى اليمن. ومعناه: وشاه أهل ريذة وسحول.

(٤) أَرَبَّتْ بِهَا: لزمتهما وأقامت بها. ونَأْجَةٌ: أي ريح نأجة، وهي الريح الشديدة السريعة.

وتزدهي الحصى: تستخفه وترمي به. والأسحَمُ: السحاب الأسود. ووكأف: كثير القطر.

(٥) بما قد أرى...: أي هذا التغير والبلاء بما كان الناس فيه من الغبطة والسرور، أي تبدل هذا بذلك.

ولنا أن نتصور وقع هذه المفارقة الكبرى في نفس الشاعر التي تصورت الدار  
عامرة تضجّ بصخب الأحباب، فإذا هي خالية متغيّرة يباب.

### ب - التغزل بالمرأة:

لقد وقف طرفه عند جمال المرأة الكلّيّ، فوصف محاسنها جملة واحدة، إذ  
شبهها بالطبي الأحمى الشادن الفتيّ الذي تحرك واستغنى عن أمه، فهو في ميعه  
الصبا وربيعان الشباب، يحلّي جيده سمطان من لؤلؤ وزبرجد<sup>(١)</sup>:

وفي الحيّ أحمى ينفض المرد شادن مظاهر سمنطي لؤلؤ وزبرجد<sup>(٢)</sup>

وشبهها ببقرة وحشية خذول، تأخرت عن صواحبها، فهي ولهة فزعة على  
خشفها، تمدّ عنقها مراقبة صواحبها لثلاثبتعد عنها، وتحنو على خشفها وترعاه<sup>(٣)</sup>:

خذول تراعي ربرباً بخميلة تناول أطراف البرير وترندي<sup>(٤)</sup>

وشبهها في قصيدة أخرى بالرثم صيد غزالها، تسارقه النظرات بطرفها  
الساجي الفاتر<sup>(٥)</sup>:

وإذهي مثل الرثم صيد غزالها لها نظر ساج إليك تواغله<sup>(٦)</sup>

ووقف طرفه عند جمال المرأة الجزئي، فوصف ثغرها العذب النضيد<sup>(٧)</sup>:

(١) معلقته: ٦.

(٢) الأحمى: الطبي الذي له خطتان من سواد وبياض. والمرد: ثمر الأراك المدرك. والشادن: الذي  
تحرك وقوي وكاد يستغنى عن أمه. والمظاهر: اللابس واحداً فوق آخر.

(٣) معلقته: ٧.

(٤) الخذول: التي خذلت صواحبها، أي تأخرت عنها. تراعي ربرباً: تراقبه وتنظر إليه. والربرب:  
القطيع من بقر الوحش. والبرير: ثمر الأراك الذي لم يدرك. وترندي: أي تهذل عليها الأغصان  
فكانها لها رداء.

(٥) ديوانه بشرح الأعلام: ١١٥.

(٦) الرثم: الطيبة البيضاء: وتواغله: أي تسارقه النظر.

(٧) معلقته: ٨.

وَتَبَسُّمٌ عَنِ الْمَيِّ كَأَنَّ مُنَوَّرًا      تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدَاً<sup>(١)</sup>

ووصف ريقها العذب البرود، وأنفاسها الزكية المعطرة، كأن ريقها رضاب المسك ممزوجاً بالماء البارد الصافي<sup>(٢)</sup>:

وَإِذَا تَضَحَّكَ تُبَدِّي حَبَابًا      كَرُضَابِ الْمِسْكِ بِالْمَاءِ الْخَصْرِ<sup>(٣)</sup>  
صَادَقَتْهُ حَرَجَفٌ فِي تَلَعَةٍ      فَسَجَا وَسَطَ بِلَاطٍ مُسَبِّطِرٍ<sup>(٤)</sup>

ووقف عند نظراتها الساحرة، إذ تخلس الطرف إليه في رشاقة وفتنة، بعينين سوداوين واسعتين، كأنهما عينا ولد الناقة الفتي، وبخدين أسيلين، كأنها خذا غزال صغير آدم اللون، علت ظهره سمرة محببة، وكسا بطنه بياض جميل<sup>(٥)</sup>.

تَخْلِسُ الطَّرْفَ بِعَيْنَيْ بُرْغَزٍ      وَبِخَدَيْ رَشَا أَدَمٍ غِرٍّ<sup>(٦)</sup>

وغمضي مع طرفه يصف حسناء المفضلة، فإذا هي هزيمة الكشح، كأنه كشح مهاة مطفل منعمة مرفهة، تعيش في خصب وسعة، تنتقل من فنن إلى فنن، وترعى الزهور النضرة والأوراق الغضة، وتجتزىء بما ترعاه من رطب الكلا، وغمض الزهور، وطري الأغصان، عن شرب الماء، فتحافظ بذلك على رشاقته، ودقة خصرها، وضمور بطنها<sup>(٧)</sup>:

(١) المي: أي ثغر المي، أسمر اللثا. والمنور: الأبقوان ظهر نوره. وحر الرمل: أكرمه وأحسنه لوناً.

والدعص: كثيب من الرمل.

(٢) ديوانه بشرح الأعلام: ٥١.

(٣) الحب: طرائق من ريقها، يريد أن فمها كثير الريق، وإذا قل ريق الفم تغيرت رائحته.

الخصر: البارد. شبه ماء فمها في طيب رائحته برضاب المسك، أي قطعه، ممزوجة بالماء البارد.

(٤) الحرجف: الريح الشديدة. والتلعة: مسيل الماء إلى الوادي. وسجا: سكن. والبلاط: أرض

مستوية في صفاة. والمسبطر: السهل الممتد.

(٥) ديوانه: ٤٧.

(٦) البرغز: ولد الناقة. والرشا: الغزال. والغر: الغافل لخدائه سنه.

(٧) ديوانه بشرح الأعلام: ٤٧.

ولها كشحا مهة مَظفِلٍ تَقْتَرِي بِالرَّمْلِ أَفْنَانَ الزَّمْرِ (١)

ويحلو لطرفة أن يسترسل في رسم صورة المهة التي شبه بها حسناءه، فإذا هي مهة صغيرة ذات شعر منسدل ملتف غزير طويل، ملساء القرن، وحولها ولدها، تنفض بقرنها أفنان الشجر، فيتساقط ثمرها حوله، وإنما في حنوها على صغيرها الذي لم يشتد ظلفه بعد، لتزداد جمالاً على جمال (٢):

وعلى المَتنينِ منها واردٌ حَسَنُ النَّبْتِ أَثِيثٌ مُسْبِكِرٌ (٣)  
جَابَةُ الْمِدْرَى لَهَا دُو جُدَّةٌ تَنْفُضُ الضَّالَّ وَأَفْنَانَ السَّمْرِ (٤)  
بَيْنَ أَكْنَافِ خُفَافٍ فَاللَّوَى مُخْرِفٌ تَحْنُو لِرِخْصِ الظَّلْفِ حُرٌّ (٥)

وهي لدنة الجسم، ناعمة بضّة، رجراجة الأعضاء (٦):

وإذا قامت تداعى قاصِفٌ مَالٌ مِنْ أَعْلَى كَثِيبٍ مُنْقَعِرٌ (٧)

وهي دافئة تطرد البرد، باردة تلطف من لذعة الحر (٨):

(١) الكشح: الخصر وما انضمت عليه الأضلاع. والمهة: البقرة الوحشية. والمظفل: ذات الولد الصغير. تقتري: تتبع. والأفنان: الأغصان.

(٢) ديوانه: ٤٨.

(٣) المتنان: ما اكتنف الصلب من اللحم. والوارد: الشعر المنسدل الساقط على المتنين. والأثيث: الملتف الكثير الأصول. والمسبكر: الممتد الطويل.

(٤) جابة المدرى: غليظة القرن ملساؤه، لم يرتفع بعد لصغرهما. وذو جدّة: ولد ذو جدّة في ظهره، وهي الطريقة التي في منته. والضال: السدر البرّي. والسمر: شجر.

(٥) الأكناف: النواحي. وخفاف واللوى: موضعان. والمخرف: التي تُتَجّت في الخريف. والحر: الكريم.

(٦) ديوانه: ٥٢.

(٧) القاصف: ما انقصف من الرمل، أي مال وانهاه. والكثيب: رمل مجتمع. والمنقعر: المنقلع من أصوله.

(٨) ديوانه: ٥٢.

تَظْرُدُ الْقُرَّ بِحَرٍّ صَادِقٍ وَعَكِيكَ الْقَيْظَ إِنْ جَاءَ بِقُرٍّ<sup>(١)</sup>

إنها من النسوة المتعمات المترفات، نؤومات الصيف، قليات الأولاد، لا تفسد جاهلن رضاعة، ولا تطفئ بريق نعمتهن هموم العيش<sup>(٢)</sup>:

لَا تَلْمَنِي إِنَّهَا مِنْ نِسْوَةٍ رُقِدِ الصَّيْفِ مَقَالِيَتَ نُزْرٍ<sup>(٣)</sup>

لقد كان يصبي فتى اللذات أن يتغنى بجمال الحساء التي لم يؤدها حمل، فتنتفخ بطنها ويتسع حوضها، ويصبه منها أن تكون دوماً ضامرة الخصر، هزيمة الكشحين<sup>(٤)</sup>

لَهَا كَبِدٌ مُلْسَاءُ ذَاتُ أُسْرَةٍ وَكَشْحَانٍ لَمْ يَنْقُضْ طَوَاءَهُمَا الْحَبْلُ<sup>(٥)</sup>

وكان يسببه منها ما هي عليه من نعمة ورقة ورفاهية ولين أعطاف، حتى إنه ليحسب رفعها طرفها للنظر شدة عليها تؤودها وتؤذيها. وهنا يملك طرفة شعور طاغ بالإعجاب بفتنتها وشبابها الممتلئ الريان، فيصرخ من أعماقه مستغيثاً مستنجداً<sup>(٦)</sup>:

تَحْسِبُ الطَّرْفَ عَلَيْهَا نَجْدَةً يَا لَقَوْمِي لِلشَّبَابِ الْمُسْبِكِرِ<sup>(٧)</sup>

والذي يدولي من تأمل شعر طرفة في الغزل أنه ربما كان في معظم غزله تقليدياً، لا نحس فيه نبضات قلب المحب العاشق، ولكنه في قصيدته الثانية<sup>(٨)</sup>:

(١) القر: البرد. والعكيك: الشديد الحر.

(٢) ديوانه: ٥٢.

(٣) رُقِدِ الصيف: أي هن مكفيات لا يعملن. والمقاليت: جمع مقلات، وهي التي لا يعيش لها ولد. والنزر: القليات الأولاد.

(٤) ديوانه: ٨٦.

(٥) الكبد: أراد بها هنا بطنها ووسطها. والأسرة: العكن والطرائق. والكشحان: ما انضمت عليه الأضلاع من الجنين. والطواء: الضمور، وقد مُدَّ هنا، والمعروف فيه القصر.

(٦) ديوانه: ٤٩.

(٧) النجدة: الشدة. والمسبكر: التام المنتصب.

(٨) ديوانه: ٤٥.

أَصْحَوْتَ الْيَوْمَ أُمَّ شَأَقْتِكَ هِرْ وَمَنْ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِيرٌ<sup>(١)</sup>  
قد يكون محباً، اكتوى بنار العشق، ولدّع قلبه الغرام، أو يكون حانثاً لفتاة اتصلت  
بينها الأسباب.

ذلك أنه لم يقتصر في تغزله بها على الحديث العام عن جماها الكلي أو الجزئي،  
وإنما تعدى ذلك إلى ذكر صلته بها أينما حلت، في الصيف وفي الشتاء. ويظهر أن  
الشاعر كان يدنو من منازلها، حيثما ألقوا عصا الترحال، وكان له منها جنى من القبل  
ألد من الراح الصافي، خالطه الماء البرود<sup>(٢)</sup>:

حَيْثَمَا قَاطُؤُوا بَنَجِدٍ وَشَتَا حَوْلَ ذَاتِ الْحَاذِ مِنْ ثِنْبِي وَوَقُرٌ<sup>(٣)</sup>  
فَلَهُ مِنْهَا عَلَى أَحْيَانِهَا صِفْوَةُ الرَّاحِ بِمَلْدُودِ خَصِرٍ<sup>(٤)</sup>

ويبدو أنها كانت تصدّ عنه أحياناً، وتناى عنه، حتى إنها لتريه نجوم الظهر،  
وإذا المحب الملوّغ المسكين، يتقلب من بلابل حبها وذكرى أيام وصلها في الأهوال  
والغموم والأحزان، وإذا هو يصيح: يَا لَشَحْطِ مَزَارِهِ، وَيَا لَسُوءِ حَالِهِ<sup>(٥)</sup>:

إِنْ تُنَوِّلُهُ فَقَدْ تَمَنَعُهُ وَتُرِيهِ النَّجْمَ يَجْرِي بِالظُّهْرِ  
ظَلٌّ فِي عَسْكَرَةٍ مِنْ حُبِّهَا وَنَأَتْ شَحْطَ مَزَارِ الْمُدْكِرِ<sup>(٦)</sup>  
وإنه، على صدها وإعراضها وبعد متآها، لمحّب مقيم على العهد، عاكف  
على حبها، مها شطت بها النوى، وبعد المزار<sup>(٧)</sup>:

فَلَيْتَنْ شَطَّتْ نَوَاهَا مَرَّةً لَعَلَى عَهْدِ حَبِيبٍ مُعْتَكِرٍ<sup>(٨)</sup>

(١) هر: اسم محبوبته.

(٢) ديوانه: ٥٠.

(٣) ذات الحاذ: أرض تنبت الحاذ، وهو شجر صحراوي. ووقُر: موضع. وثيابه: جانباه.

(٤) الملدود: اللذيذ المستلذ. والخصر: البارد.

(٥) ديوانه: ٥٠.

(٦) العسكرة: الشدة والغم. شحط مزار المدكر: أراد يا شحط مزاره، والشحط: البعد.

(٧) ديوانه: ٥١.

(٨) معتكر: دائم ثابت.

بل إن حبها تغلغل في شغاف قلبه، فلا فكاك منه، ولا إقلاع له عنه<sup>(١)</sup> :

كَيْفَ أَرْجُو حُبَّهَا مِنْ بَعْدِمَا      عَلِقَ الْقَلْبُ بِنَضْبِ مُسْتَسِرٍّ<sup>(٢)</sup>

وهي إن غابت عن ناظره، فطيفها لا ينقطع عن زيارته، يقطع البید إليه آخر الليل، وصحبه هجع، فتمثل فيه الحبيبة رشيقة فاتنة، كالظبية المتوردة الحساء الفاترة الحركات، فتثير أشجانه، وتؤرق جفنه، وتحرمه لذيد المنام<sup>(٣)</sup> :

أَرْقَ الْعَيْنَ خَيْالًا لَمْ يَقِرْ      طَافَ وَالرَّكْبُ بِصَحْرَاءِ يُسْرٍ<sup>(٤)</sup>  
جَازَتْ الْبِيدَ إِلَى أَرْحُلِنَا      آخِرُ اللَّيْلِ بِيَعْفُورٍ خَدِرٍ<sup>(٥)</sup>  
ثُمَّ زَارْتَنِي، وَصَحْبِي هُجَعٌ      فِي خَلِيطٍ بَيْنَ بُرْدٍ وَنَمِرٍ<sup>(٦)</sup>

وتتداعى إلى ذاكرة الشاعر صورة ترحل الحبيبة عن الديار وسط نسوة منعمات، يبدون للناظر من شدة بياضهن ولين أجسامهن كالسحاب البيض الرقاق، يتثنين في مشيتهن ثني نبات الصيف الأخضر اللدن الغض، ويرتفع من بين النسوة الفاتنات صوت حبيته الرخيم، ويتراعى إلى سمعه، فيقطع نياط قلبه خوف النوى، ويرفع عينيه فيرى حبيته المثلثة، صاحبة الصوت الرخيم، قد تحملت للرحيل، وقد فاح من هودجها العبير<sup>(٧)</sup> :

كَبَنَاتِ الْمَخْرِ يَمَآذِنَ كَمَا      أَتَبَتِ الصَّيْفُ عَسَالِيحَ الْخَضِرِ<sup>(٨)</sup>  
فَجَعُونِي يَوْمَ زَمُوا عَيْرَهُمْ      بِرَخِيمِ الصَّوْتِ مَلْثُومِ عَطْرِ

(١) ديوانه : ٤٦ .

(٢) أرجو حبها : أي أرجو إقلاع حبها عني . والنصب : العذاب . والمستسر : المكتتم الداخل في القلب .

(٣) ديوانه : ٤٦ .

(٤) لم يقر : لم يدع فيستقر ويسكن . ويسر : موضع .

(٥) اليعفور : ظبي تملوه حمرة . والحدرد : الفاتر العظام البطيء عند القيام .

(٦) برد ونمر : قبيلتان من إباد .

(٧) ديوانه : ٥٣ .

(٨) المخر : سحاب يأتي قبل الصيف منتصب رفاق . والعساليح : جمع عسلوج ، وهو نبت أبيض يخرج

في الصيف ، لين ينثي ، فشبته تنثيهن به . والخضر : نبت أخضر .

ويبدو أنه قد سنحت في حياة طرفه سوانح من السعادة، ابتسمت له فيها الأيام، ومنحته نوعاً من الحياة الغضة الطليقة الرافهة، الحافلة بالنعيم، امتدت حقبة من الزمان، كان فيها الحبيبان في لقاء دائم، آمين، لا يخشيان التفرق، كلاهما غرير لاهم يؤوده فينغص عليه صفاء النعيم الذي يتقلبان في أعطافه، وهما في عنفوان الصبا وريعان الشباب، يرحان في عالمه السمع الضاحك المستبشر الطروب<sup>(١)</sup>:

غَيْنَا وما نَخْشَى التَّفَرُّقَ حِقْبَةً      كِلَانَا غَرِيرٌ نَاعِمٌ العَيْشِ بِاجِلَةٍ<sup>(٢)</sup>  
 لَيْسَالِي أَقْتَادُ الصَّبَا وَيَقُودُنِي      يَجُولُ بِنَا رَيْعَانُهُ وَنُجَاوِلُهُ<sup>(٣)</sup>  
 إنهما بيتان يدلان على تجربة غنية طافحة بالمتعة والسعادة، عاشها الشاعر، وصدق في نقلها إلينا.

ولكن هذا الحلم الجميل الزاهي، لم يكد صاحبه يتملاه ويستمتع به، حتى تقوَّض بناؤه السامق، وُصُوِّحَ ظلُّه وزهره، وغاضتْ مأوّه وجف ثمره. ومن هنا كان الشاعر يرى أن الموت أهون على الفتى من حب شغف قلبه وأقام فيه لا يريم<sup>(٤)</sup>:

لَعَمْرِي لَمَوْتُ لَا عُقُوبَةَ بَعْدَهُ      لِذِي البَثِّ أَشْفَى مِنْ هَوَى لَا يُزَائِلُهُ<sup>(٥)</sup>  
 فَوَجِدِي بِسَلْمَى مِثْلُ وَجِدِ مُرَقَّشٍ      بِأَسْمَاءَ إِذْ لَا تَسْتَفِيقُ عَوَاذِلُهُ<sup>(٦)</sup>  
 وبعد، فهل استطاع هذا الحب الجارف الذي رأينا صوراً منه في شعر طرفه أن يعصف بقلب الفتى العزيز، ويغمز من قناة صلفه واستعلائه وكبريائه، ويجعله راکعاً صاغراً متذللاً أمام المحبوبة، شأن المحيّن المتيّمين؟

(١) ديوانه: ١١٦.

(٢) الباجل: الناعم الحسن.

(٣) ريعانه: أوله.

(٤) ديوانه: ١٢٠.

(٥) البث: الحزن، وحقيقته ما بثه الإنسان من وجده إذا لم يستطع أن يكتبه.

(٦) لا تستفيق عواذله: أي لا يترك من عذلهن له مقدار فيقة، والفيقة ما بين الحلبتين.

لقد هزت رياح الحب أوتار قلب طرفه، فوقَّع تلك الألحان الرائعة الجميلة، ولكن تلك الرياح لم تعصف بقلبه كله، بل ظلَّ معتصماً بعزته وكبريائه وأنفة الشباب فيه، فبينما كنا نراه هائماً مشغولاً بالحبيبة، مفجوعاً بزَمَّ الجمال للرحيل، إذا نحن نراه قد أدركته سورة الشباب ونزقه، وسكرة الفتوة واعتدادها، فإذا هو يقول<sup>(١)</sup>:

وَإِذَا تَلَسُّنُنِي أَلْسُنُهَا      إِنِّي لَسْتُ بِمَوْهُونٍ فَقِيرٌ<sup>(٢)</sup>  
ويثور بخيال الحنظلية الذي شغل باله وأرقَّ جفنه، فيصيح<sup>(٣)</sup>:

فَقُلْ لِحَيَالِ الْحَنْظَلِيَّةِ يَنْقَلِبُ      إِلَيْهَا فَإِنِّي وَاصِلٌ حَبْلٌ مَنْ وَصَلُ<sup>(٤)</sup>

ومن هنا عاب النقاد على طرفه هذا الاستعلاء على المحبوبة، إذ عهدهم بالمحب التذلل بين يديها والضراعة والملاطفة والملاينة والاسترحام.

وغزل طرفه وثيق الصلة بحياته، بل هو تعبير صادق عن الفترة الهنيئة القصيرة التي اختلسها شاعرنا من حياته. ومن ثم كانت صورته الغزلية غنية مترفة، توحى بالرفاهية وغضارة العيش وغناه، وتتألق فيها الأضواء والألوان.

فالظبي الذي شبه به المحبوبة لابس سمطي لؤلؤ وزبرجد، والحبيبة تفتخر عن ثغر براق الثنايا، كأن بياضها نور الأقحوان، وأي أقحوان؟ إنه الأقحوان النضر العاجي المتألق، الذي نبت في كثيب من حر الرمل وأكرمه وأحسنه لوناً وأكثره ندى، وقد انسكب ضوء الشمس على الثنايا البراقة البيضاء، وذُرَّ الإثم على اللثا، ليريز الثغر أشد ما يكون بياضاً وشفاء، ولم تكدم عليه بعظم فيؤثر في جماله<sup>(٥)</sup>:

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ      مُظَاهِرٌ سِمَطِي لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجِدٍ<sup>(٦)</sup>

(١) ديوانه: ٥٤.

(٢) بقول: إذا أخذتني بلسانها وفخرت علي انتصرت بلساني، وقابلتها بمثل ذلك، لأني عزيز قوي النفس لا أحتمل الضيم. والموهون: الضعيف. والفقير: الضعيف الفقار وهو كناية عن ضعف النفس.

(٣) ديوانه: ٨٨.

(٤) الحنظلية: امرأة من بني حنظلة بن مالك.

(٥) معلقته: ٦، ٨، ٩.

(٦) مضي البيت وشرحه ص ٩٠.

وَتَبَسُّمٌ عَنِ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا      تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِ (١)  
سَقْتَهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِشَاتِهِ      أُسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ (٢)

والخذول التي شبهها بها أيضاً طليقة وسط خميلة، تهدلت فيها الأغصان، حتى كأن لها منها رداء، وراحت هي تضع يديها على ساق الشجرة، وتمد عنقها فتناول ما فاتها من الأغصان، وهذا كله دليل خصب ونعمة ورفاهية، لحظه الشاعر في المحبوبة حين عقد التشبيه (٣):

خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ      تَنَاولُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي (٤)

والصور في غزل طرفة دقيقة كل الدقة، محكمة أشد الإحكام، فهو إذا ما شبه المرأة بالمهاة أو الطيبة خصّ دوماً المطفل ذات الولد الصغير، التي تخذل القطيع، وتعطف على ولدها، لأن ذلك أبين لحسنها وأتم؛ إذ تشرئب بصرها مراقبة القطيع كيلا يبتعد عنها، وتمد عنقها مراقبة وليدها حانية عليه كما رأينا في البيت السابق، وكما في هذا البيت (٥):

بَيْنَ أَكْنَافِ خُصَافٍ فَالْلَوِي      مُخْرِفٌ تَخْتَوِلِرْخِصِ الظَّلْفِ حُرٌّ (٦)

والمهاة المشبه بها لطيفة، رقيقة، هضيمة الكشح، مرفهة، وفي ذلك التشبيه ما فيه من دقة وتأنق وإتقان وجودة، عني به شاعر شاب متطلع إلى اللذات، مشوق إلى مجالسة النساء، بصير بمواطن الجمال في أجسامهنّ.

ولما وقف عند رضاها العذب البارد، وأنفاسها الزكية المعطرة، عقد لذلك تشبيهاً، التفت فيه للمشبه به، وأطال فيه القول، ليؤكد الصفة التي يريد إثباتها للمشبه به (٧):

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٩١.

(٢) إيابة الشمس: ضوءها وشعاعها. وأسِفَّ: دُرٌّ. وتكدم: تعص. والإثمد: الكحل.

(٣) معلقته: ٧.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٩٠.

(٥) ديوانه: ٤٩.

(٦) تقدم البيت وشرحه ص ٩٢.

(٧) ديوانه: ٥١.

وَإِذَا تَضَحَّكَ تُبَدِّي حَبَباً كَرَضَابِ الْمِسْكِ بِالمَاءِ الْخَصْرِ<sup>(١)</sup>  
صَادَفْتُهُ حَرَجَفٌ فِي تَلْعَةٍ فَسَجَا وَسَطَ بَلَاطٍ مُسَبِّطٍ

فهو يريد أن يثبت لها عذوبة الريق وبرده وطيب رائحته، فشبه ريقها برضاب المسك ممزوجاً بالماء البارد الصافي الساجي في أرض مستوية، تداعبه الرياح، فتزيده برودة، وهذا ما يسميه البلاغيون بالإيغال في التشبيه.

وصور طرفة في غزله بدوية صرفة، وبعضها مزيج من معطيات البيئة الحضرية في البحرين، ومعطيات البيئة البدوية في بوادي نجد.

فمن صوره البدوية البحتة قوله في وصف المطر ينهمر على ديار خولة<sup>(٢)</sup>:

كَأَنَّ الخَلَايَا فِيهِ ضَلَّتْ رِبَاعُهَا وَعُودًا إِذَا مَا هَزَّهُ رَعْدُهُ اخْتَفَلُ<sup>(٣)</sup>

فقد شبه السحاب لكثرة رعده بالإبل العوذ، حديثة النتاج، ضلت عنها رباعها، فهي تحن إليها. وخص في تشبيهه العوذ، لأنها أوله على أولادها لحدثان نتاجها، فحنينها أشد، وصوتها أقوى وأوضح.

ومن هذه الصور البدوية الجميلة الشاحصة قوله يصف ليونة جسم المرأة الرجراج<sup>(٤)</sup>:

وَإِذَا قَامَتْ تَدَاعَى قَاصِفٌ مَالٌ مِنْ أَعْلَى كَثِيبٍ مُنْقَعِرٍ<sup>(٥)</sup>

أما صورته التي مزج فيها بين معطيات البيئة الحضرية في البحرين، ومعطيات البيئة البدوية في بوادي نجد، فنجدها في مثل قوله واصفاً مراكب النساء<sup>(٦)</sup>:

(١) تقدم البيت والذي يليه ص ٩١.

(٢) ديوانه: ٨٦.

(٣) الخلايا: جمع خلية، وهي النوق. والرباع: جمع رُبْع، وهو ما نتج في الربيع. والعوذ: الحديثات النتاج، واحدها عائذة.

(٤) ديوانه: ٥٢.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٩٢.

(٦) معلقته: ٣، ٥.

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ      خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوْصِفِ مِنْ دَدٍ<sup>(١)</sup>  
يَشْتُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرِزُومَهَا بِهَا      كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ<sup>(٢)</sup>

فقد شبه حدود المالكية تشق طريقها في الأودية بالسفن العظام، تشق مياه البحر، كما يشق الصبيان التراب بأيديهم، وهم يلعبون لعبة الفئال. فالتشبيه الحضري بالسفن إلى جانب التشبيه البدوي بالفئال جنباً إلى جنب.

وحيثما شبه خولة بالظبي، كان ظيباً لابساً سمطي لؤلؤ وزبرجد. وأسلوب طرفة في غزله يرق ويشف ويلطف بألفاظه العذبة الأليقة المؤنسة، وبتركيبه البديعة المحكمة<sup>(٣)</sup>:

دِيَارٌ لِسَلْمَى إِذْ تَصِيدُكَ بِالْمُنَى      وَإِذْ حَبَلُ سَلْمَى مِنْكَ دَانَ تُوَاصِلُهُ<sup>(٤)</sup>  
وَإِذْ هِيَ مِثْلُ الرَّثْمِ صَيْدَ غَزَالِهَا      لَهَا نَظَرٌ سَاجٍ إِلَيْكَ تُوَاعِلُهُ<sup>(٥)</sup>  
غَيْنِيَا. وَمَا نَخَشَى التَّفَرَّقَ حِقْبَةً      كِلَانَا غَرِيرٌ نَاعِمُ الْعَيْشِ بِأَجْلُهُ<sup>(٦)</sup>  
لِيَالِي أَقْتَادُ الصَّبَا وَيَقُودُنِي      يَجُولُ بِنَا رَيْعَانُهُ وَنُجَاوِلُهُ<sup>(٧)</sup>

فالألفاظ عذبة الوقع، حلوة الرنين، واضحة مانوسة، والتراكيب رصينة النسيج، محكمة الرصف، بديعة التأليف، يسري فيها الماء والرونق، وتوج ظلال الحب والأمن والدعة والجمال.

(١) الحدوج: جمع حدج، وهو مركب من مراكب النساء. والمالكية: من بني مالك بن ضبيعة بن قيس بن شعلبة. والخلايا: جمع خلية، وهي السفينة العظيمة. والنواصف: مواضع تتسع من الأودية. ودد: موضع.

(٢) حباب الماء: أمواجه. وحيزومها: صدرها. والمفائل: الذي يلعب الفئال، وهي لعبة الصبيان العرب، يجمعون تراباً أو رملًا، ثم يجثون فيه خباً ثم يشق المفائل التراب بيده فيقسمه قسمين ثم يسأل عن خبته.

(٣) ديوانه: ١١٥، ١١٦.

(٤) تصيدك بالمني: تمنيك وتصيدك بمنها.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٩٦.

(٦)، (٧) تقدم البيتان وشرحهما ص.

## الوصف

انبت الوصف في قصائد طرفه، وكان عدته الفنية في أغراضه الشعرية كافة، فهو في غزله وفخره وهجائه وسائر موضوعاته وصاف متأن مجود متقن، كأنه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البلور، كما يقول الرافعي<sup>(١)</sup>، تمدّه موهبة فطرية لا قطة لعناصر الوصف، وحاسة دقيقة في اصطفاء الصالح من تلك العناصر والتأليف بينها، بحيث يستقيم له وصف ما يريد على أدق وجه ارتضاه، وأكمل صورة تخيلها.

ومن هنا كان على الباحث الذي يودّ الإحاطة بفن طرفه الوصفي أن يلم بصنيعه الفني في كل غرض من أغراضه الشعرية، ويستجلي الصور والمشاهد واللوحات التي رسمتها ريشته الدقيقة، في ثنايا تلك الأغراض.

أما دائرة الوصف الكبرى التي ارتسمت غرضاً واضحاً بين أغراضه الشعرية، فكان محتواها: وصف الناقة، ووصف الخيل.

### أ - وصف الناقة:

كانت الناقة شيئاً أساسياً هاماً في حياة طرفه، فهي راحلته في الأسفار، وهي رفيقه في الوحدة، وأنيسه في الغربة، وهي وسيلته للضرب في الأرض، على متنها قطع المفاوز والفلوات، وشرق في الأرض وغرب، وبها تقحم المهالك، وسار في الهواجر اللافحات.

(١) تاريخ آداب العرب ٣/٢٢٥.

فلا غرو أن يقبل طرفه على وصف الناقة، فيقف عند كل عضو من أعضائها، كما يقف الرسام الفنان، يرسم لوحة كاملة لناقة قوية نشيطة من أنجب النوق وأجلها. ولا بدع أن يتغنى بإرقاها الدائب، ووَخدها السريع، وتبخرها المعجب، ولونها الجميل، وغير ذلك من أوصافها وحركاتها وطباعها، وأن يأتي في هذا الوصف بالشيء الوافي البديع المعجب الفذ الذي لم يبلغ شأوه شاعر.

وقد جاء معظم وصفه لناقة في معلقته، إذ استغرق ثمانية وعشرين بيتاً منها: وبعضه في القصيدة الثانية من ديوانه برواية الأصمعي، ولم يشغل منها سوى ثلاثة أبيات.

بدأ وصفه لناقة في معلقته، بعد مقدمة في النسب استغرقت عشرة أبيات، انتقل بعدها ببراعة إلى وصف الناقة، إذ أخبر أن من عادته إذا حلت بساحته الهوم أن يرحل على ناقة عوجاء ذات أسفار، تصل رواحها بغدوها<sup>(١)</sup>:

وإني لأنمضي الهمَّ عندَّ اختِضارِهِ  
بعُوجاءِ مِرقالِ تَروحٍ وتَغندي<sup>(٢)</sup>

ومن هنا انطلق في وصفها وصفاً مفصلاً؛ فهي موثقة الخلق، واسعة الجنين، كأنها، في سعة جنبيها وشدة خلقها، ألواح التابوت<sup>(٣)</sup>:

أمون كألواحِ الإِيرانِ نَسأتُها  
على لاجِبِ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجِدِ<sup>(٤)</sup>

وهي شبيعي، منعمة مرفهة، رعت أطيب نبت الربيع، في حدائق جادها المزن الهتون، فتشنى نبتها رياً وغضارة، وراحت تباري كرام النوق العتاق السراع، في مناقلتها، وإتباع وظيف رجلها وظيف يدها، في حركة دائبة سريعة فوق الطريق المعبد الذلول<sup>(٥)</sup>:

(١) معلقته: ١١.

(٢) العوجاء: الضامرة. مرقال: سريعة. تروح وتغندي: أي تصل آخر النهار بأوله في السير.

(٣) معلقته: ١٢.

(٤) أمون: الموثقة الخلق التي يؤمن عثارها. الإيران: التابوت. نساتها: زجرتها. واللاجب: الطريق

البيّن. والبرجد: كساء مخطّط.

(٥) معلقته: ١٣، ١٤.

تَرَبَّعتِ القُفَّينِ في الشُولِ تَرْتَمِي حَدائقَ مَواليِ الأَسِرَّةِ أَعْيَدِ (١)  
تُبَارِي عِتاقاً نَاجِياتٍ وَأَتَبَعْتُ وَظيفاً وَظيفاً فَوْقَ مَوْرِ مُعْبَدِ (٢)

ويقف طرفة عند سرعتها في غير بيت من أبيات معلقته، فيقلب المعاني على وجوهها، ويتفنن في عرض صور تلك السرعة، من خلال وصفه أعضائها التي خُلقت في هيئة، تعينها كل العون على السرعة.

فهي سريعة الوُحد، تنقل قوائمها بخفة وسرعة عجيبتين، لأن يدها في أصل خلقتها مرنة الحركة، وليست بكزة ولا جاسية، بل إن يديها مفتولتان أشد القتل، وعضديها أميلا تحت صدر، كأنه سقف، أسند بعض حجارته إلى بعض (٣):

صُهايئةُ العُنُونِ مُوجَدَةُ القَرا بَعِيدَةُ وَخَدِ الرِّجْلِ مَوارةُ اليَدِ (٤)  
أَمِرتُ يَدَها قَتَلَ شَرزِرٍ وَأَجِنَحَتْ لَها عَضُدَها في سَقيفِ مُسَدِّ (٥)

وهي تميل في سيرها حدة ونشاطاً، وتندفق في سرعتها اندفاقاً، يعينها على ذلك كتفان عاليان مشرفان (٦):

جَنوحُ دُفاقِ عَنَدَلٍ ثُمَّ أَفِرَعَتْ لَها كَتِفَها في مُعاليِ مُصَعَدِ (٧)

(١) تربعت: رعت الربيع. والقف: ما ارتفع من الأرض. وفي الشول: أي تربعت مع الشول، وهي التي أتى عليها من نتاجها أشهر. والمولي: الذي أصابه المطر الولي، وهو مطريلي مطراً قبله والأعيد: المثني من النعمة.

(٢) العتاق: كرام الإبل. والناجيات: السراع. والمور: الطريق.

(٣) معلقته: ٢٣، ٢٤.

(٤) الصهبة: أن يخلط بياضها حمرة، والمؤجدة: المؤثقة الشديدة. والقرا: الظهر. والوحد: أن تزج بقوائمها وتسرع. وموارة: مضطربة.

أمرت يدها: فتلقت فتلاً شديداً. والشزر: أن يقتل من أسفل الكف إلى فوق. وأجنحت:

(٥) أميلت. والسقيف ها هنا: زورها وما فوقه.

(٦) معلقته: ٢٥.

(٧) الجنوح: التي تجنح في سيرها أي تميل بسرعة ونشاطاً. والدفاق: السريعة. والعندل: الضخمة الرأس. وأفرعت: عوليت وأشرفت. والمعالى والمصعد: المرفع إلى فوق.

وهي طيّعة ذلول، إن شاء لم ترقل، وإن شاء أرقلت، فنفضت رأسها بشدة وأسرعت، مخافة السوط المفتول<sup>(١)</sup>:

وإن شئت لم تُرْقِلْ، وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القِدِّ مُحصَدٍ<sup>(٢)</sup>

وإذا ما لوح لها بالسوط أسرعت عند اشتداد الحر، واضطراب السراب في الأرض الحزن الصلبة، المتوقدة الحصى بلهيب الهاجرة<sup>(٣)</sup>:

أحلتُ عليها بالقطيع فأجذمت وقد حَبَّ آلُ الأَمْعَزِ المُتَوَقِّدِ<sup>(٤)</sup>

وتراها حين توميء برأسها إلى الأرض، وتدنيه منها تزداد سرعة على سرعة.

وهي من فرط نشاطها وحيويتها دائمة الضرب بذنبها، فطوراً تضرب به خلف رديف راجبها، وتارة تضرب به على ضرعها الداوي المنقبض الخاوي من اللبن<sup>(٥)</sup>:

فَطَوْرًا بِهِ خَلْفَ الزَّمِيلِ وتارةً على حَشْفِ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مُجَدِّدٍ<sup>(٦)</sup>

وقد يأتي وصف طرفه لناقته السريعة النشيطة الجريئة الدؤوب، في إطار من وصف الطبيعة، فإذا نحن أمام لوحة طبيعية شائقة، خطتها ريشة شاعر فنان صناع<sup>(٧)</sup>:

وِبِلَادٍ زَعَلٍ ظَلَمَانِهَا كَالْمَخَاضِ الْجُرْبِ فِي الْيَوْمِ الْخَدِرِ<sup>(٨)</sup>

(١) معلقته: ٣٧.

(٢) الإرقال: أن تنفض رأسها لشدة سيرها. والملوي: السوط المفتول. والقِدِّ: ما قُدَّ من الجلد. والمحصد: الشديد الفتل.

(٣) معلقته: ٤٢.

(٤) أحلت عليها بالقطيع: أقبلت عليها بالسوط وصبيته عليها. وأجذمت: أسرعت. وقد حَبَّ: أي جرى واضطرب. والآل: السراب. والأمعز: المكان الغليظ الكثير الحصى.

(٥) معلقته: ١٧.

(٦) الزميل: الرديف. والحشف: الضرع المنقبض. والمجدد: الذاهب اللبن.

(٧) معلقته: ٢٩ - ٣١.

(٨) الزعل: النشيطة. والظلمان: ذكور النعام. والمخاض: الحوامل من الإبل. الجرب: لأنها سود من القطران، وهو أشبه لها بالنعام. والخدير: الذي يجدر فيه لشدة برده أو لمطر وريح يكون فيه فتتضم فيه المخاض وتجتمع.

قَدْ تَبَطَّنْتُ وَتَحْتِي جَسْرَةٌ      تَنْقِي الْأَرْضَ بِمَلْثُومٍ مَعْرٍ<sup>(١)</sup>  
فَقَرَى الْمَرْوَ إِذَا مَا هَجَّرَتْ      عَنْ يَدَيْهَا كَالْفَرَّاشِ الْمُشْفَتِرِ<sup>(٢)</sup>

إنه وصف لناقته، دخل إليه بعد تنويه بالبلاد الخالية التي غشيها، وهي تحته، وهي بلاد فيها نعام نشيطة، تشبه إبلًا حواملٍ جُرباً، هُنِثَتْ بِالْفَطْرَانِ، فاسودَّ لونها، وتجمعت كما تتجمع المخاض وتتضمَّم في اليوم البارد. وقد لاحظ في تشبيهه هذا اللون والهيئة في تجمع الظلمان وانضمامها، كما لاحظ، إذ وصفها بالنشاط، أنها آمنة في هذه البلاد، فلا أحد من الإنس يروعها، وهذا دليل وحشتها، إذ هي خالية من الناس. وقد تبطنها طرفة، أي دخل بطونها غير هيَّاب ولا وجل من المجهول الذي يقتحمه.

ومن هنا انطلق يصف ناقته التي كان يمتطيها حين تبطن تلك البلاد، فإذا هي طويلة، نشيطة، جريئة على الأهوال، ذؤوب على السير في الأرض الحزن، حتى إن خفها لثمته الحجارة، فأدمته وأسقطت ما حوله من الشعر.

ومضي في وصف دأبها على السير، وقوة وقع يديها على الأرض الصخرية الوعرة، ففي الهاجرة، وعلى صعوبة السير فيها، ترى الحجارة البيض تتطاير تحت وقع يديها، كما يتطاير الفراش متفرقاً حول السراج.

وهو وصف حي لقوة الناقة وصلابة قوائمها، وجلدها، يرسمه في صورة من التشبيه التمثيلي شاخصة، تلقي ظلال القوة والمضاء على هذه الناقة من جهة، وعلى الأهوال الشداد التي كان يركبها طرفة من جهة أخرى، في رحلاته المحفوفة بالمخاطر في قلب الصحراء.

ومن صفات ناقة طرفة أنها متنبهة حساسة مرهفة، تعطف إلى صوت الفحل المهيب بها، وتتقيه بذنبها ذي الخصل الذي يشبه في قلبه جناحي نسرٍ أحمر يضرب إلى البياض<sup>(٣)</sup>:

(١) تبطن: دخلت. والجسرة الطويلة. والملثوم: أراد خفها الذي لثمته الحجارة فأدمته، وأشار بذلك إلى ذؤوبها في السير. والمعر: الذي ذهب ما حوله من الشعر.  
(٢) المرؤ: الحجارة البيض. والمشفتر: المفترق.  
(٣) معلقته: ١٥، ١٦.

تَرِيحُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَّقِي  
 كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنَفَا  
 وهي ، على سرعتها وتنبهها ، ذات هيكل ضخم شديد ، قام على أعضاء قوية  
 صلبة دقيقة الخلق محكمة الصنع (٣) :

لَهَا فَخِذَانِ أَكْمَلَ النَّحْضِ فِيهِمَا  
 وَطَيَّ مَحَالٍ كَالْحَنِيِّ خُلُوفُهُ  
 كَأَنَّ كِنَاسِي ضَالَّةٍ يَكْتَفَانِيهَا  
 لَهَا مَرْفِقَانِ أَفْتَلَانٍ كَأَنَّمَا  
 كَقَنْطَرَةِ الرَّوْمِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا  
 كأنهما بابا مُنِيفٍ مُمَدَّدٍ (٤)  
 وَأَجْرِنَةُ لُزَّتْ بِدَائِي مُنْضَدٍ (٥)  
 وَأَطْرَ قِيسِي تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدٍ (٦)  
 أَمْرًا بَسَلَمَى دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ (٧)  
 لَتُكْتَفَنَنَّ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ (٨)

فهي ذات فخذين مكتنزتي اللحم ، انتصبا كأنهما بابا قصر عال مشرف .  
 وفقار ظهرها متراصفة متدانية متراصة ، وكذلك فقار عنقها ، وضلعوها المتصلة بهذه  
 الفقار منحنية واسعة كالأقواس المعطوفة ، فجوفها واسع ، وباطن عنقها وما حوله  
 مشدود إلى فقار عنق نضد بعضه على بعض . وهي واسعة الإبطين ، مأمونة العثار ،

(١) تريح إلى صوت المهيب: أي ترجع وتعطف إلى صوت الفحل المهيب بها . والخصل: شعر الذنب .  
 والأكلف: الذي يشوب حرته سواد . وملبد: ذنب الفحل المتلبد .  
 (٢) النسر المضرحي: الأحمر الضارب إلى البياض . تكنفا: صارا عن يمين الذنب وشماله . وحفافاه:  
 جانباه . العسيب: عظيم الذنب . والمسرد: المخرز .  
 (٣) معلقته: ١٨ - ٢٢ .

(٤) النحض: اللحم . والمنيف: قصر مشرف . والممدد: الأملس .  
 (٥) طي محال: أي لها فقار ظهرها متراصفة . والحني: جمع حنية ، وهي القوس . والخلوف: مآخيز الأضلاع .  
 والأجرتة: جمع جران ، وهو باطن الخلقوم . ولزت: ألصقت . والدأي: فقار العنق . والمنضد:  
 الملتصق بعضه ببعض .

(٦) الكناس: ما يحفره الثور الوحشي في أصل الشجرة يكتنه من الحر والبرد . والضال: شجر . وأطر  
 قسي: قسي معطوفة . والمؤيد: المشدد .

(٧) أفتلان: متجايفان عن زورها . وأمرا: قتلا . والسلم: الدلو . والدالج الذي يدلج بالدلو إلى  
 الحوض . متشدد: لأنه يتشدد إذا باعد عضديه عن زوره .

(٨) التكتفنن: لتؤتين من أكتافها ، أي من نواحيها . والقرمد: الأجر .

كأن الفراغ بين مرفقيها وزورها كناسان، احتفرهما ثور وحشي في شجرة السدر. أما ضلوعها فقد بدت كالقسيّ المأطورة تحت صلبها المتين.

ويلح طرفه على هذا المعنى، ليرز ناقته شديدة ضخمة الهيكل، فيأتي بتشبيه آخر لمرفقيها المتجايفين البائنين عن زورها، فكأنها يدا حامل دلوين، يباعدهما عن ثيابه، ويتشدد في مباعدهما.

ويتم خياله صورتها، وقد انتصبت ضخمةً عاليةً أجل ما تكون الضخامة، قويةً أشد ما تكون القوة، فيشبهها بقنطرة الرومي المحكمة الصنع، أقسم ربّها الصّناع أن يُحكّم بناؤها، وتُحاطّ بالأجر من كل جانب.

ولا يفوت هذا الشاعر الوصّاف الفنّان، المحدّق المدقّق في كل جزء من جسم ناقته أن يقف عند آثار حبال الرحل في ضلوع صدرها، ويصورها تصويراً، كلّ إحكام، وكلّه دقة وحسن هندسة<sup>(١)</sup>:

كَأَنَّ عُلُوبَ النَّسْعِ فِي دَأْيَاتِهَا      مَوَارِدُ مِنْ خَلْقَاءِ فِي ظَهْرِ قَرْدَدِ<sup>(٢)</sup>  
تَلَاقَى وَأَحْيَاناً تَبِينُ كَأَنَّهَا      بِنَائِقُ غُرٍّ فِي قَمِيصٍ مُقَدَّدِ<sup>(٣)</sup>

لقد بدت هذه الآثار في الصورة التي خطتها ريشة طرفه كأنها طرق الوُراد إلى الماء في الصخرة الملساء في الأرض المستوية الصلبة، وهذه الآثار تتلاقى أحياناً، وتتفرق أحياناً، كأنها رقع بيض في قميص قديم مشقّق. ولا يخفى ما في هذين التشبيهين من دقة وعناية وإحكام، لتبرز تلك الآثار واضحة للعيان، وتدل على نشاط هذه الناقة وما تبذله من جهد في إرقالها السريع.

وينتقل من وصف هيكلها العام إلى وصف عنقها ورأسها وما فيه من أعضاء،

(١) معلقته: ٢٦، ٢٧.

(٢) العلوب: الآثار. النسع: حبال الرحل. دأياتها: ضلوع صدرها. موارد: طرق الوُراد. والخلقاء: الصخرة الملساء. والقردد: ما استوى من الأرض وصلب. وجعل الصخرة في قردد، لأن ذلك أصلب لها.

(٣) تلاقى: أي الموارد. وتبين: تفرّق، وبنائق: رقع. وغرّ: بيض. ومقدّد: خلّق.

فيفق عند كل عضو من هذه الأعضاء وقفة فنان مصور، شذها إلى وتد وراح يصور تلك الأعضاء.

إنها ذات عنق طويل مرتفع مشرف، إذا رفعته بدا كعمود مرتفع لسفينة تمخر عباب دجلة<sup>(١)</sup>:

وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ كَسُكَّانٍ بُوصِيٍّ بِدِجْلَةٍ مُصْعِدٍ<sup>(٢)</sup>

وجمعتها كالسندان في صلابتها، كأنها قطعة واحدة في التأمها، إذ انضمت نتوء الملتقى فيها والتأمت كاللثام المبرد من تحت حزوزه<sup>(٣)</sup>:

وَجُمُجْمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا وَعَى الْمُلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مِبْرَدٍ<sup>(٤)</sup>

وهو تشبيه دقيق فريد من نوعه، شهد بذلك الأصمعي إذ قرّظه بقوله: «لم يأت أحد بهذا التشبيه غير طرفه»<sup>(٥)</sup>.

وعيناها صافيتان صفاء المرآة، استقرتا في كهفين من عظم العين، الذي بدا في تجويفه كنقرة في صخرة تمسك الماء<sup>(٦)</sup>:

وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْتَا بِكَهْفِي حِجَاغِي صَخْرَةٍ قَلْتِ مُورِدٍ<sup>(٧)</sup>

وهما عينان صحيحتان، تدفعان بالقذى إن سقط فيهما منه شيء، مكحولتان كعيني بقرة وحشية مذعورة ذات ولد<sup>(٨)</sup>:

(١) معلقته: ٢٨.

(٢) أتلع: مشرف طويل. ونهاض: مرتفع. والسكّان: عود المركب. والبوصي: السفينة.

(٣) معلقته: ٢٩.

(٤) العلاة: السندان. وعى الملتقى: انضم وجبر.

(٥) ديوانه بشرح الأعلام: ١٨.

(٦) معلقته: ٣٠.

(٧) الماوية: المرآة. استكتا: حلّتا. والكهف: الغار، وأراد به غار العين. والحجاج: عظم العين.

والقلت: نقرة في الحجر تمسك الماء. والمورد: الماء. وجعلت قلت مورداً، لأن صخرة الماء لأصلب.

(٨) معلقته: ٣١.

طُحُورَانِ عَوَارَ الْقَدَى فَتَرَاهُمَا كَمَكْحُولَتَي مَذْعُورَةٍ أُمَّ فَرْقَدٍ<sup>(١)</sup>

وأذناها مرهفتان، تلتقطان ما يخيل لها الخوف والحذر في الليل، من صوت خفي أو بين<sup>(٢)</sup>:

وَصَادِقَاتَا سَمِعِ التَّوَجُّسِ لِلسَّرَى لَجَرَسِ خَفِيِّ أَوْ لِسَوْتِ مُنَدِّدٍ<sup>(٣)</sup>

وهما أذنان محدّدتان، يتبيّن فيهما الكرم، كأنها أذنا ثور مفرد، متوحش، متوجّس، متنبه السمع، مرتاع<sup>(٤)</sup>:

مُؤَلَّتَانِ تَعْرِفُ العِتَقَ فِيهِمَا كَسَامِعَتَي شَاةٍ بِحَوْمَلٍ مُفْرَدٍ<sup>(٥)</sup>

وخدّها أبيض جميل كقرطاس الشامي، لا شعر فيه، ومشفرها طويل كجمال الجلد اليماني، ليس، لم يجرد من الشعر<sup>(٦)</sup>:

وَحَدُّ كَقِرْطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٌ كَسَبَتِ اليمَانِي قِدَهُ لَمْ يُجْرَدِ<sup>(٧)</sup>

ولون عثنونها جميل، يدل على عتقها ونجابتها، فهي صهابية العثنون، وهذه الصهبة في بياضها المشوب بحمرة نجار النجائب من النوق<sup>(٨)</sup>:

---

(١) الطحوران: الدفوعان الطرودان. وعوار القدي: قطعة من الرمد. والقدي: وسخ العين وما سقط فيها. وأصاف العوار إلى القدي، لأن العين إذا رمدت قذيت. يريد أن عينها صحيحتان لم يصبها عوار. كمكحولتي مذعورة: يريد كعيني بقرة مذعورة، وإذا كانت مذعورة كان أحمدلنظرها وأبين لحسن عينها. والفرقد: ولد البقرة.

(٢) معلقته: ٣٣.

(٣) صادقاتا: يعني أذنيها. والتوجس: الخوف والحذر. والمندد: الصوت المرتفع.

(٤) معلقته: ٣٤.

(٥) مؤلّتان: محدّدتان كتحديد الحربة. والعتق: الكرم. والسامعتان: الأذنان. وحومل: اسم رملة. مفرد: جعله مفرداً لأنه أشدّ توحشاً وحذراً، إذ ليس معه وحش يلهيه ويشغله ويؤنسه، فأنفاده أشدّ لسمعه وارتباعه.

(٦) معلقته: ٣٢.

(٧) كقرطاس الشامي: في بياضه ونعومته. والسبت: جلود البقر المدبوعة. والقدي: ما قُدّ من الجلد. ولم يجرد: أي لم يلق الشعر من عليه، فهو ألين له وأحسن.

(٨) معلقته: ٢٣.

صُهَابِيَّةُ الْعُثْنُونِ مُوجِدَةٌ الْقَرَا بَعِيدَةٌ وَخَدِ الرَّجُلِ مَوَارَةَ الْيَدِ<sup>(١)</sup>  
 ومما وقف عنده طرفه في وصف ناقته هيئتها الجميلة، وهي مسرعة، إذ رسم  
 عنقها الطويل المشرف، وقد سامى واسط الرجل، على حين راحت تسبح بعضديها  
 سبحاً في سرعة الخفידد، ذكر النعام<sup>(٢)</sup>:

وإن شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد<sup>(٣)</sup>

إنها لصورة جميلة بارعة لهيئة هذه الناقة المسرعة وحركتها، وقد انتصب عنقها  
 مرتفعاً عالياً مشرفاً، على حين راحت تمد يديها كما يدهما السابح في حركة سريعة  
 دائية.

ومن هذا الباب وصفه تبخترها في مشيتها، كما تبختر الوليدة أمام ربها،  
 مرخية أذيال ثوبها الأبيض<sup>(٤)</sup>:

فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلِيدَةٌ مَجْلِسٍ تُرِي رَبَّهَا أَذْيَالَ سَحْلِ مُمَدَّدٍ<sup>(٥)</sup>

وهي صورة رشيقة، تبرز جمال مشية الناقة، وتعكس حبه لها، وافتتانه  
 بمشيتها، إلى حد يسامي التغزل بتلك المشية المتبختره الرشيقة.

ولم يكتف طرفه بوصف أعضاء ناقته الظاهرة وسرعتها، وضروب مشيتها،  
 وضخامة هيكلها، فغاص على قلبها، وتخيَّله أقوى وأشدَّ وأنشط ما يكون القلب،  
 ووصفه بما يبرز قوته وحدته ونشاطه وصلابته<sup>(٦)</sup>:

وَأَرْوَعُ نَبَاضٍ أَحَدُ مُلْمَلَمٍ كَمِرْدَاةِ صَخْرٍ مِنْ صَفِيحٍ مُصَمَّدٍ<sup>(٧)</sup>

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٣

(٢) معلقته: ٣٦.

(٣) واسط الكور: العود الذي بين مورك الرجل ومؤخرته. والكور: الرجل. وضبعها: عضداها.  
 والنجاء: السرعة.

(٤) معلقته: ٤٣.

(٥) ذالت: أي ماست في مشيتها وتبخترت. والسحل: الثوب الأبيض. وممدد: مرسل إلى الأرض.

(٦) معلقته: ٣٥.

(٧) الأروع: القلب الحديد المرتاع لحدته. والنباض: المضطرب من الفزع. والأحد: الأملس.  
 والململم: المجتمع. والمرداة: صخرة تدق بها الحجارة، ولا تكون إلا صلبة. والصفيح: صخر  
 عريض. والمصمد: المشدد المصمت.

إنه قلب حديد، مرتاع، نباض، أملس، منقبض، كأنه صخرة صلبة، تدق بها الحجارة، ولا ريب أن الناقة التي تحمل هذا القلب بين جنبيها هي ناقة من أقوى النوق وأنشطها وأنجبها.

ونخلص إلى القول: إن ما تقدم من وصف طرفة للناقة وصفاً دقيقاً بارعاً، ليدل على مدى حفاوة طرفة بهذا الوصف، وانفعاله به، وعلى أن الناقة لم تستحوذ على اهتمامه هذا الاستحواذ، ولم تستقطر من عصارة قريحته الشعرية ما استقطرت، إلا لأنها كانت في معظم سني حياته رفيقه الأمين، وصاحبه الوفي، وأنيسه الأثير.

لقد رأينا في مستهل وصفه للناقة أنه كان من عادته إذا دجا داجي الهموم في حياته ارتحل على ناقته، لبيد حنادس هم، ويزيل غواشي كربها. وها نحن أولاء نراه في ختام وصفه للناقة، بعد أن أوفى على الغاية في وصفها يقول<sup>(١)</sup>:

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي  
ألا لئيتني أفديك منها وأفتدي<sup>(٢)</sup>

فناقته التي يمضي بها هم، ويحقق رغائب نفسه، هي هذه الناقة التي وصف أو مثلها. وهذه الناقة هي عدته وعتاده في الحلّ والترحال، وهي رفيقه وسميره في الفلوات، ما أظلم ليل وأشرق نهار.

وإذا ما أضفنا إلى هذا كله ولع طرفة بالوصف، ولهجه الشديد بتجويد الصورة وإحكامها، تجلّى لنا سرّ إبداعه الفذّ في وصف الناقة.

## ب - وصف الخيل:

ارتبط وصف الخيل في شعر طرفة بالحماسة والفخر، فهي عنده وسيلة الفرسان المغيرين على الأعداء، وهي عدّة الكمأة الصّيد الذّابّين عن الحمى والشرف، ومن ثمّ جاء وصفه للخيل وصفاً جامعاً، منبثاً في ثنايا فخره، بدت فيه الخيل متدفقة مغيرة على الأعداء، ولم يبد فيه الجواد الفرد المطهّم الجميل الصافن،

(١) معلقته: ٣٩.

(٢) أفديك منها: أي من الفلاة المخوفة المهلكة. وأضمرها ولم يجر ذكرها لأن سياق الكلام وذكر الناقة والسير في الفلاة يدلّ عليها.

الذي وقف صاحبه يرسم له لوحات شاخصة، يبرز فيها جماله وقوته وسرعته. لقد اختلف صنيعة الفني في وصف الناقة عنه في وصف الخيل لهذا السبب، فهناك كان، في أغلب الأحيان، يقف وجهاً لوجه أمام الناقة، يلتقط لها الصور من كل جانب، وهنا وقف أمام الجمع المغير من الخيل، فوصفها وهي مندلقة إلى الغارة كأسراب الطير. ولعل هذا الاختلاف بين وصفه للناقة والخيل هو الذي حمل الرافعي على القول: «وصف طرفة النوق وصفاً شعرياً، ولكنه قصر في وصفه الخيل»<sup>(١)</sup>.

وسرى بعد تحليل وصفه للخيل أنه لم يقصر في صفة الخيل، بل كان له مذهب في وصفها، يختلف عن مذهبه في وصف الناقة، لارتباط الخيل عنده بالحماسة والفخر كما أسفلت.

ويقع وصف طرفة للخيل في قصيدته الثانية، وقصيدته الثانية عشرة؛ ففي قصيدته الثانية يدخل إلى وصف الخيل في حمياً نشوة الفخر بشجاعة قومه، مهيباً بالشباب في مجلس قومه أن يجردوا لهم الأمور خيولاً حمراً وشقراً أصيلة منسوبة ضمراً، حظيت بكمال الرعاية والعناية، وحسن القيام عليها<sup>(٢)</sup>:

أَيْهَا الْفَتِيَانُ فِي مَجْلِسِنَا جَرَدُوا مِنْهَا وِرَاداً وَشُقْرًا<sup>(٣)</sup>  
أَعْوَجِيَاتٍ طَوَالاً شُرْبًا دُوخَلَ الصَّنْعَةُ فِيهَا وَالضَّمْرُ<sup>(٤)</sup>

ويتخذ من هذا النداء منطلقاً لوصف الخيل التي أوصى الفتية من قومه بحيازتها وتجريدها للقاء، فتناسب أوصافها على لسانه بكلمات سريعة، فيهنّ دقة الوصف الذي رمى إليه، وغزير المعنى الذي دلت عليه<sup>(٥)</sup>:

(١) تاريخ آداب العرب ٣/٢٢٥.

(٢) ديوانه بشرح الأعلام: ٦٣.

(٣) جردوا: أي ألقوا عنها جلالها وأخرجوها للقاء.

(٤) أعوجيات: منسوبة إلى أعوج، وهو فحل لغني. والشرب: الضمر. ودخل الصنعة فيها: أحسن القيام عليها وتعهدّها. والضمر: تضميرها.

(٥) ديوانه: ٦٤.

مِنْ يَعْابِبِ ذُكُورٍ وَوَجْهِ  
 وَهَضَبَاتٍ إِذَا ابْتَلَّ الْعُدْرُ<sup>(١)</sup>  
 جَافِلَاتٍ فَوْقَ عَوْجٍ عَجْبَلٍ  
 رُكِبَتْ فِيهَا مَلَاطِيسُ سُمْرٍ<sup>(٢)</sup>  
 فهي طويلة، شديدة العدو، ذكور، سراع، شداد، تزداد سرعة إذا عرقت  
 وابتل لجامها، ماضيات، منحدرات فوق قوائم عوج، سريعة الحركة، سمر  
 الخوافر، صلبة شديدة.

وهي خيل طويلة الأعناق، تملأ العين بأعناقها المشرفة العالية، إذ تبدو للناظر  
 إليها كجذوع نخل شذب قشرها، فإزداد ذلك في طولها. وفوق أيديها العالية انتصبت  
 أوساطها وأسعات الأجواف، رحيبات الصدور، تتيح لها التنفس العميق السهل إذا  
 أدركها الجهد والإعياء، فلا ينبهر لها نفس، ولا يضيق فيها صدر<sup>(٣)</sup>:

وَأَنَافَتْ بِهَوَادٍ تُلَعٍ  
 كَجُذُوعٍ شُدْبَتْ عَنْهَا الْقُشُرُ<sup>(٤)</sup>  
 عَلَتْ الْأَيْدِي بِأَجْوَازٍ لَهَا  
 رُحْبُ الْأَجْوَافِ مَا إِنَّ تَنْبَهَرَ<sup>(٥)</sup>  
 وهي سريعة العدو، إذا ما حي جريها التوت أزر راكبيها، وطارت في  
 الهواء<sup>(٦)</sup>:

فَهِيَ تَرْدِي فَإِذَا مَا أَلْهَبَتْ  
 طَارَ مِنْ إِحْمَائِهَا شَدُّ الْأَزْرُ<sup>(٧)</sup>  
 وتراها جميلة الهيئة، وهي تردى مسرعة، قدرفعت أذنانها سائلات بها. وعند  
 اشتداد الجري تنحرف وتميل على أحد شقيها متمدات منبسطات، تسح العدو  
 سحاً<sup>(٨)</sup>:

(١) اليعابيب: جمع يعبوب، وهو الطويل الجسم من الخيل والسريع. والوُجْج: جمع وقاح، وهو الصلب  
 الخوافر. والهضبات: السراع الشداد. والعدر: جمع عذار، وهو اللجام.  
 (٢) جافلات: ماضيات سريعات. عوج: قوائم فيها انحناء، وذلك مما تمدح به. والعُجَل: السراع.  
 والملاطيس: جمع ملطاس، وهو اللجام. وهو معول يكسر به الصخر، شبه به الخوافر.

(٣) ديوانه: ٦٥.

(٤) أنافت: أشرفت. وهوادٍ: أعناق. وتلَع: طويلة.

(٥) الأجواز: الأوساط.

(٦) ديوانه: ٦٥.

(٧) تردى: تسرع. وألْهَبَتْ: شدت جريها.

(٨) ديوانه: ٦٥.

كائِرَاتٍ وَتَرَاهَا تَنْتَحِي مُسَلِحَاتٍ إِذَا جَدَّ الْحُضْرُ<sup>(١)</sup>

فإذا ما جدَّ الجدُّ، وعلا الفرسان صهواتها، رأيتها مندلقة في الغارة كأسراب الطير، تمر قطعاً قطعاً، تحمل فرسانها إلى مستغيثهم<sup>(٢)</sup>:

دُلُقُ الْغَارَةِ فِي إِفْزَاعِهِمْ كَرِعَالِ الطَّيْرِ أُسْرَاباً تَمُرُّ<sup>(٣)</sup>

أما وصفه الخيل في قصيدته الثانية عشرة، فيأتي أيضاً بعد فخره بشجاعة قومه، إذ صورهم سادة بهليل، يجمون السُّرب بسيوفهم ورماحهم، وبخيولهم الضخمة الصلبة، النجيبة، المنسوبة، السبابة، الضامرة، من كثرة تغلاك اللحم في ميادين الوغى<sup>(٤)</sup>:

وَفُحُولٍ مَيْكَلَاتٍ وَوَقِحٍ أَعْوَجِيَّاتٍ عَلَى الشَّأْوِ أَرْزُمٌ<sup>(٥)</sup>

وقنا جُرْدٍ وَخَيْلٍ ضَمْرٍ شُرْبٌ مِنْ طَوْلِ تَغْلَاكِ اللَّجْمِ<sup>(٦)</sup>  
وهو وصف رائع للخيل، صورها فيه من أحسن الخيل وأكرمها، بما حشد لها من صفات عالية كريمة.

ويعضي في وصف خيل قومه، فينوه بأثر الصنعة في حسن القيام عليها وتعهدها، حتى ظهرت متونها مكتنزة باللحم، ضامرة البطون، فجمعت بين محاسن الاكتناز ومزايا الضمر، وهذا أحسن ما توصلت إليه الصنعة في تربية الخيول<sup>(٧)</sup>:

(١) كائرات: رافعات أذناها شائلات بها، وإنما تفعل ذلك لشدة أصلاها. وتنتحي: تنحرف في عدوها. والمسليحات: المنبسطات الممتدات في العدو. وجدَّ الحضر: انكمش العدو واشتدَّ.

(٢) ديوانه: ٦٦.

(٣) دلق: جمع دلوق، وهو المتقدم المسرع إلى الغارة. والريعال: قطع الطير. والأسراب: جمع سرب، وهو القطيع من الطير والقطباء والنساء.

(٤) ديوانه: ١٠٨.

(٥) الهيكلات: جمع هيكل، وهو الضخم من الخيل. والوقح: جمع وقاح، وهو الصلب الحافر. والأعوجيات: منسوبة إلى أعوج، وهو فحل من الخيل معروف بالنجابة. والشأو: الطلق والسبق. والأزم: العواض على الأجم.

(٦) قناجرد: يعني رماحاً ملساً. والشرب: جمع شازب، وهو الضامر.

(٧) ديوانه: ١٠٨.

أَدَّتِ الصَّنْعَةَ فِي أُمَّتِنِهَا فَهِيَ مِنْ تَحْتِ مُشِيحَاتِ الْحَزْمِ<sup>(١)</sup>

وهي ، بعد ، ذات خوافر منتفخة صلبة سود ، تفوص في مرتفعات الأكم ، وتتقي بها الأرض<sup>(٢)</sup> :

تَنْقِي الْأَرْضَ بِرُحٍ وَقُحٍ وَرُوقٍ يَقْعَرْنَ أُنْبَاكَ الْأَكْمِ<sup>(٣)</sup>  
وقد تفرى لحمها وذاب من كثرة تعدائها ، حتى غدت في صلابتها وضميرها كالنوى<sup>(٤)</sup> :

وَتَقْرَى اللَّحْمُ مِنْ تَعْدَائِهَا وَالتَّغَالِي فَهِيَ قُبُّ كَالْعَجَمِ<sup>(٥)</sup>

وهي شديديات العدو ، ملحات في الجري ، إذ ارتفعت الأيدي ملوحة لها بالسياط ، وفي ذلك وصف لها برهافة الحس ، وفرط النشاط ، وسرعة الشد<sup>(٦)</sup> :

خُلْجُ الشَّدِّ مُلِحَاتٌ إِذَا شَالَتْ الْأَيْدِي عَلَيْهَا بِالْجِدْمِ<sup>(٧)</sup>

ولا تراها إلا مندفعة إلى الغارة ، متقدمة الخيل ، منسلخة عنها ، مسرعة إلى الداعي المستصرخ المستغيث ، الذي خصَّ بدعوته آل الشجاعة والنجدة ، ثم عمَّ بدعائه الناس جميعاً ، لما كان يلقي من الفزع والكره الشديد<sup>(٨)</sup> :

قُدْمًا تَنْضَوُ إِلَى الدَّاعِي إِذَا خَلَّلَ الدَّاعِي بِدَعْوَى ثُمَّ عَمَّ<sup>(٩)</sup>

(١) الصنعة : القيام على الخيل بالعلف . وأراد : ظهر أثر العناية في متونها فاكتنزت باللحم . ومن تحت : أي من تحت متونها . ومشيحات الحزم : أي لحقت بطونها بظهورها من الضمير وارتفعت حزمها .

(٢) ديوانه : ١٠٨ .

(٣) حوافر رُح : أي منتفخة . وقُح : صلبة . وورُوق : أي هي أقرب إلى السواد . ويقعرن : يدخلن . والأنباك : جمع نَبَك ، وهي الأرض المرتفعة .

(٤) ديوانه : ١٠٩ .

(٥) تقرى : تقطع وذهب . والتغالي : التباري في العدو . وقب : جمع قَبَاء ، وهي الضامرة البطن . والعجم : النوى . شبه الخيل في ضميرها وصلابتها به .

(٦) ديوانه : ١٠٩ .

(٧) خُلج الشَّد : تمجذب قوائمها بسرعة ونشاط في عدوها . والمَّلِحَات : التي تلح في الجري وتدعيه . والجلم : السياط .

(٨) ديوانه : ١١٠ .

(٩) تنضو إلى الداعي : أي تتقدم الخيل . وخلَّل : خصَّ .

وأحسب أنني، فيما قدمت من وصف طرفة للخيل، قد أزحت الستارة عن لوحة الخيول الجياد التي رسمها طرفة في شعره، وإنما لخيول أصيلة قوية سريعة جميلة، تدل على سيادة مقتنيها وعزتهم وغناهم.

وصور طرفة في وصفه الناقة والخيل عامة تقوم على تشبيهات متزعة من البيئة التي تقلب فيها، ووقع عليها بصره. ومن ثم ارتسم في تشبيهاته كناس الثور الوحشي في شجرة السدر، وسفن البحرين ودجلة، وقنطرة الرومي. وكلها من مراثيه في البيئة الواسعة التي ارتادها في رحلاته وأسفاره.

وهي صور محكمة الهندسة والبناء، دقيقة التشبيه، خص فيها المشبه به بعناية فائقة، ليثبت لمشبهه الصفة المشتركة بينهما، بحيث يكون في الغاية من هذه الصفة، وليبرزه في أحسن حالة وأكملها؛ فناقته ضخمة عالية كالقنطرة، ولكنها ليست كأبي قنطرة، إنها قنطرة الرومي المتقن، المدقق في إحكام بنائه واستوائه وحسن تشييده<sup>(١)</sup>:

كَقَنْطَرَةِ الرَّؤْمِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا لَتُكْتَنَفَنَّ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ<sup>(٢)</sup>  
وعيناها مكحولتان كعيني بقرة وحشية، ولكنها ليست كأبي بقرة، إنها بقرة وحشية مذعورة ذات ولد، لأنها إذا كانت ذات ولد وذعرت من أجله، وتشوّفت نحوه، وأحدت النظر إشفاقاً عليه، كان ذلك أحمد لنظرها، وأبين لحسن عينيها<sup>(٣)</sup>:  
طُحُورَانِ عُوَارَ الْقَدَى فَتَرَاهُمَا كَمَكْحُولَتِي مَذْعُورَةٍ أُمَّ فَرَقْدٍ<sup>(٤)</sup>

لقد كان همه إثبات القوة والمتانة والجمال لكل عضو من أعضاء ناقته، ولذلك عندما أراد تصوير عظم عينيها شبهه بنقرة في صخرة تمسك الماء، فهي ليست كأبي صخرة، إنها صخرة تمسك الماء، لأن صخرة الماء أصلب من غيرها من الصخور<sup>(٥)</sup>:

(١) معلقته: ٢٢.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٦.

(٣) معلقته: ٣١.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٩.

(٥) معلقته: ٣٠.

وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْتَسَا بِكَهْفِي حِجَابِي صَخْرَةَ قَلْتِ مَوْرِدٍ<sup>(١)</sup>

وقد توصل طرفة إلى رسم صورة واضحة لناقته القوية النشيطة الجميلة، تارة بالتشبيهاً المحكّمة على النحو الذي رأينا آنفاً، وتارة بالألفاظ والتعابير السريعة المتخيّرة، التي تحمل الأوصاف المميّزة المركّزة، كقوله<sup>(٢)</sup>:

وَإِنِّي لَأَمْضِي الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءِ مِرْقَالٍ تَرَوُّحٌ وَتَغْتَنَدِي<sup>(٣)</sup>  
وقوله<sup>(٤)</sup>

جَوْحٌ دُفَاقٌ عِنْدَلْ ثُمَّ أَفْرِعَتْ لَهَا كَتِفَاهَا فِي مُعَالَى مُضَعَّدِي<sup>(٥)</sup>  
وقوله<sup>(٦)</sup>

صُهَابِيَّةُ الْعُثْنُونِ مُوجَدَةُ الْقَرَا بَعِيدَةٌ وَخَدِ الرَّجُلِ مَوَارَةُ الْيَدِ<sup>(٧)</sup>

فكل لفظ أو عبارة في هذه الأبيات رسم خطأً من خطوط الصورة الكبيرة لتلك الناقه، وحدّد صفة من صفاتها المميّزة، ولا ريب أن هذه الإشارات السريعة بكلمات معدودات، ورسمها تلك الخطوط الواضحة في الصورة الكبيرة، من العبقرية الشعرية التي تُحسب لطرفة، وهي تشكل جانباً هاماً من جوانب موهبته في فن الوصف، إلى جانب تجويده التشبيه، وتأتيه في إحكامه.

ومن صورهِ الجميلة في وصف الخيل التي رسمها بالفاظهِ المفردة المتتابعة، مستعيناً بالكناية والاستعارة أيضاً، قوله<sup>(٨)</sup>:

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٨.

(٢) معلقته: ١١.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٢.

(٤) معلقته: ٢٥.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٣.

(٦) معلقته: ٢٣.

(٧) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٣.

(٨) ديوانه: ٦٧.

مِنْ يَمَائِبِ دُكُورٍ وَفُحٍ      وَهَضَبَاتٍ إِذَا ابْتَلَّ الْعُدْرُ<sup>(١)</sup>  
جَافِلَاتٍ فَوْقَ عُوجِ عُجَلٍ      رُكِبَتْ فِيهَا مَلَاطِيسُ سُمَيْرٍ<sup>(٢)</sup>

والفاظ طرفة في وصف الناقة والخيل، فخمة جزلة، يركب فيها متن الغريب، ويوغل فيه، على حين هي في الفخر، على جزالتها ومتانتها، مأنوسة واضحة، لا تضمن بمعانيها إلا قليلاً. وهذا الاختلاف في وعورة اللفظ وحوشيه، وسهولته وقربه، إنما يرجع إلى طبيعة الموضوع الذي يطرقه الشاعر، وطرفة في وصف الخيل والناقة والصحراء وما يتصل بها بسبب، يحتطب أفاضه من حطب الصحراء الجزل، ويللم تعابيره من فلواتها الموحشة وأوابدها الشُّرود.

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١١٣.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ١١٣.

## الفخر

ولد طرفة في بيت كريم، ينتمي إلى القبيلة العربية الكبيرة بكر، وأحسن منذ نشأته بشرف انتمائه إلى هذه القبيلة وذاك البيت، إذ سمع عن الأيام التي خاضتها قبيلة بكر، وكانت لها فيها الغلبة على خصيمتها التقليدية تغلب، وترددت على مسامعه المآثر العربية الأصيلة التي عُرف بها أجداده من كرم وشجاعة ووفاء وعزة وحلم وإباء، فورثها عنهم، وتعشقتها نفسه.

وكان طرفة في ميعة صباه وربيعان شبابه، تتوق نفسه إلى التغني بشرف النسب وكريم المحتد وحيد الفعال، وواتته النبعة الشاعرية الثرة في هذا المجال، يمدّها رصيد ضخّم من تاريخ قبيلته وأيامها، وإرث عظيم من خلائقهم ومحامدهم، واستعداد نفسي ذاتي كامن في طبيعة طرفة للزهو والتهيه والترفع والمباهاة والمبالغة في إسباغ الخلائق الحميدة عليه وعلى قومه، فكان له من هذا كله شعرٌ حيّ غزير في الفخر، يتدفق باللفظ الكريم الفحل، والصورة الشاخصة الرائعة، والنبض العاطفي الصادق.

والفخر في شعر طرفة لوانان: فخر ذاتي يتغنى فيه بخلائقه وسجاياه، وفخر جماعي يشدو فيه ألحان القبيلة، ويشمل بتجلية سيرتها ومحامدها للناس.

أما فخره الذاتي فكان إرضاء لنزعة الاعتداد بالنفس، وتحقيقاً لذاته المفتحة على الحياة، ولا نكاد نجدّه إلا في معلقته. أما في قصائده الأخرى فهو نزر يسير، لا يكاد يوجد إلا في قصيدته الثانية وقصيدته السابعة عشرة، يبدأ به، ثم لا يلبث أن يتحول إلى الفخر الجماعي.

وأما فخره الجماعي ، فقد اثبت في معظم قصائده ، فأنت تراه واضحاً صريحاً منذ البدء حتى الختام في قصائده: الخامسة، والثانية عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة. ومن ثم كان الفخر بلونيه من الأغراض الكبرى التي استولت على مشاعر طرفه، فحباها عصاره تفكيره، وضمّنها كريم قصيده.

### أ- فخره الفردي:

فاضت نفس طرفه بشعر الفخر الذاتي الذي يعزف فيه نغمات الاعتداد بالنفس، ويعدّد ما تحلّى به من صفات وأخلاق، كان يراها حلية الشاب الشجاع، وقوام شخصية الفتى الأبي الكريم.

ومن هنا كانت النغمة الواضحة في هذا الفخر تنبعث من ضمير المتكلم المفرد (أنا)؛ إذ الفخر الفردي يدور حول محور الذات، وما اتصفت به من صفات.

إنه ليفخر باستجابته لدعوة الداعي، ولو لم يكن مُنادى باسمه، وكأنه يرى في تلك الاستجابة أعلى مراتب المروءة والنخوة وإغاثة المستغيث<sup>(١)</sup>:

إذا القوم قالوا: مَنْ فتنى؟ خِلْتُ أَنِّي عَنِيتُ، فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّلْ  
ويفخر بمنعته وتسلّحه، وهذا شأن الشجعان المتأهين لكل غارة، فالسيف ملازم له، وإنه لسيف بتار، لا يفل له حد، ولا ينبو عن ضريبة<sup>(٢)</sup>:

وَأَلَيْتُ لَا يَنْفُكُ كَشْحِي بِطَانَةَ لِعَضْبِ رَقِيقِ الشُّفْرَتَيْنِ مُهَنْدٍ<sup>(٣)</sup>  
أَخِي ثِقَةَ لَا يَنْتَبِي عَنْ ضَرِيْبَةِ إِذَا قِيلَ مَهَلًا قَالَ حَاجِرُهُ قَدِي<sup>(٤)</sup>

(١) معلقته: ٤١.

(٢) معلقته: ٨٣.

(٣) أليت: أفسمت. والكشع: الخاصرة وما انضم عليه الأضلاع. والعضب: السيف القاطع. وشفرتاه: حداه. والمهند: السيف المحكم المصنوع ببلاد الهند.

(٤) أخي ثقة: يعني السيف، أي يوثق بمضائه وحدّه. وحاجزه: الذي يجز به، أي يقطع. وقدي: حسي. يقول: إذا أمر حاجزه بالتأني والرفق أعجله السيف لمضائه أن يمهّل فقال: قدي، أي قد فرغ من القطع ومضى.

حُسامٍ إِذا ما قُمتُ مُتَّصِراً بِهِ كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءَ لَيْسَ بِمُعْضَدٍ<sup>(١)</sup>

ويفخر بمكانته وقوته وجراته وكرم أصله، مما دفع عنه عداوة الأفراد والجماعات، ونفى عنه إقدام الرجال وتسرعهم بالمساءة إليه<sup>(٢)</sup>:

فَلَوْ كُنْتُ وَغَلاً فِي الرِّجَالِ لَضَرَّنِي عداوةُ ذِي الأَصْحابِ وَالمُتَوَحِّدِ<sup>(٣)</sup>  
ولكن نَفَى عَنِّي الرِّجَالِ جِراءِتي وَصَبْرِي وإِقْدامي عَلَيْهِمُ وَمَحْتَدِي<sup>(٤)</sup>

ويفخر بشبابه في الحرب يوم الكريهة، محافظة منه على حسن الأحذوتة وكريم الذكر، وأنفة من الدناءة، وإن الفتى المقدام لترتعد فرائضه من هول ذلك اليوم خشية الهلاك<sup>(٥)</sup>:

وَيَوْمَ حَبَسْتُ النَّفْسَ عِنْدَ عِراكِها حِفاظاً على عَوْراتِهِ وَالتَّهَدُّدِ<sup>(٦)</sup>  
على مَوْطِنٍ يَخْشى الفَتى عِنْدَهُ الرَّدَى مَتى تَعْتَرِكُ فِيهِ الفِرائِصُ تُرْعَدِ<sup>(٧)</sup>

ويفخر بجراته وشجاعته في قطع المهامه والقفار الموحشة القديمة التي تعزف فيها الجنّ، قائداً مقداماً لسادة نبلاء<sup>(٨)</sup>:

وَرُكُوبٍ تَعْرِزُ الجِئْنَ بِهِ قَبْلَ هذا الجِئْلِ مِنْ عَهْدِ أبْدِ<sup>(٩)</sup>

(١) كفى العود منه البدء: أي كفتني الضربة الأولى التي بدأت بها أن أعيد ضربة ثانية. والمعصد: الرديء من السيوف.

(٢) معلقة: ٩٦، ٩٧.

(٣) الوغل: الضعيف من الرجال. والمتوحد: الفرد الذي ليس معه جماعة.

(٤) المحتد: الأصل.

(٥) معلقة: ٩٩، ١٠٠.

(٦) عراكها: أي معالجتها الحرب. عوراته: أي عورات ذلك اليوم كالانزمام ونحوه. والتهدد: تهدد الأعداء إياي.

(٧) الفرائص: جمع فريضة، وهي بضعة تلي الجنب عند مرجع الكتف، وهي أول ما يردع من الإنسان (٨) وغيره عند الفزع.

ديوانه: ١٣٠.

(٩) الركوب: الطريق المذلل. ومن عهد أبد: أي من عهد الدهر الماضي.

وَضِيَابٍ سَفَرَ الْمَاءَ بِهَا  
فَهِيَ مَوْتَى لِعَبِّ الْمَاءِ بِهَا  
قَدْ تَبَطَّنَتْ بِطَرْفٍ هَيْكَلٍ  
قَائِدًا قُدَامَ حَيٍّ سَلَفُوا  
نُبْلَاءَ السُّعْيِ مِنْ جُرْثُومَةٍ  
غَرَقَتْ أَوْلَاجُهَا غَيْرَ السُّدَدِ<sup>(١)</sup>  
فِي غُثَاءِ سَاقِهِ السَّيْلِ عُدَدُ<sup>(٢)</sup>  
غَيْرِ مِرْبَاءٍ وَلَا جَابٍ مُكْدُ<sup>(٣)</sup>  
غَيْرِ أَنْكَاسٍ وَلَا وُغْلٍ رُقْدُ<sup>(٤)</sup>  
تَتْرُكُ الدُّنْيَا وَتَنْمِي لِلْبَعْدِ<sup>(٥)</sup>

إنها لوحة شاخصة لهذا الطريق المخوف الموحش، بدت فيها الضياب غرقى، أخرجها السيل من جحورها، بعد أن غمرتها المياه، إلا ما ارتفع منها فلم يصبه السيل، فإذا هي ملقاة مع الغناء المتراكب يحتملها السيل. وفي هذا الإطار الوصفي دخل إلى وصف رحلته، إذ تبطن هذا الطريق الوعر المجهول، وقد امتطى صهوة جواد كريم ضخيم غير متناقل في مشيه، وكان قائداً أمام سادة كرام أقوياء، نبلاء السعوى، من أصل رفيع ومحمد طيب، يتركون الدنيا وما فيها من رخيص المتاع، وبينون الأجداد البعيدة الشريفة.

ويفخر طرفه بصبره على المصائب والأرزاء تحل بساحته، فلا يتململ ولا يجأ بالشكوى، بل يخاطب نفسه التي فدحتها المصائب الفوادح مرة بعد مرة قائلاً لها: تحلّي بالصبر فإنك من قوم لا يعرفون التشكّي والجزع<sup>(٦)</sup>:

ذَاكَ عَضْرُ، وَعَدَانِي أَنْسِي نَابِنِي الْعَامَ خُطُوبٌ غَيْرُ سِرُّ

(١) سفر الماء بها: أي أخرجها من حجراتها. وأولاجها: مداخلها وحجراتها. والسُدَد: ما ارتفع من حجراتها فلم يصبه السيل.

(٢) العُدَد: المتراكب.

(٣) الطَّرْف: الفرس الكريم. الهيكل: الطويل. غير مِرْبَاءٍ: أي ليس به ربو، وهو البُهر وتواتر النفس والانتفاخ من عدو أو فزع. والجَاب: الغليظ. والمكْد: الثقل البطيء الذي يكْد بالساق وبالسوط.

(٤) سلفوا: أي هلكوا ومضوا. والأنكاس: جمع نكس، وهو الضعيف من الرجال. والوُغْل: الأعداء. وارقد: جمع رُقود، وهو الكثير الرقد.

(٥) نبلاء السعوى: أي لا يسعون إلا في الأمر العظيم. والجرثومة: الأصل. وتنمي للبعْد: أي تنهض للأمر الشريف.

(٦) ديوانه: ٥٦.

مِنْ أُمُورٍ حَدَّثَتْ أَمْثَالَهَا      تَبْتَرِي عُوْدَ الْقَوِيِّ الْمُسْتَمِرِّ (١)  
وَتَشْكِي النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا      فَاصْبِرِي إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَبْرٌ (٢)

وهو، إلى هذه الشجاعة والإقدام والصبر، كريم لا يتوارى إذا طرقة الضيف وابن السبيل (٣):

وَلَسْتُ بِمَخْلَلِ التَّلَاعِ مَخَافَةً      وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدُ (٤)

بل إن الإبل لتخشاه، إذ عرفت منه عادة عقرها كلما ألم بساحته ضيف (٥):

وَبَرِّكَ هُجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي      نَوَادِيَهُ أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ (٦)  
فَمَرَّتْ كَهَاءُ ذَاتُ خَيْفٍ جُلَالَةً      عَقِيلَةٌ شَيْخٌ كَالْوَيْبِلِ يَلْتَدِدُ (٧)  
يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الْوِظِيفُ وَسَاقَهَا      أَلَسْتُ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتِ بِمُؤِيدِ (٨)  
وَقَالَ أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ لِشَارِبِ      شَدِيدٍ عَلَيْكُمْ بَغْيُهُ مُتَعَمِّدِ (٩)  
فَقَالَ ذَرُوهُ إِنَّمَا نَفَعُهَا لَهُ      وَإِلَّا تَكْفُوا قَاصِي الْبَرِّكَ يَزِدُّ (١٠)

إنه مشهد من مشاهد الحياة اللاهية العابثة التي كان يجيهاها طرفة مع اللاهين من أمثاله، نشهد فيه طرفة السكير المهاجم لإبل شيخ نكد من أبناء عمومته، كما في

(١) المستمر: الصلب الشديد.

(٢) ما صاب بها: أي ما أصابها ونزل بها.

(٣) معلقته: ٤٤.

(٤) التلاع: مجاري الماء التي تصب في الوادي، وهي تستر من نزل فيها.

(٥) معلقته: ٨٧ - ٩١.

(٦) البرك: جماعة الإبل. والهجود: النيام. ومخافتي: أي خوفها إياي. ونواديه: أوائله وما سبق منه. والعضب: السيف القاطع. والمجرد: المسلول.

(٧) الكهاة: الناقة الضخمة المسنة. والخيف: جلد الضرع. والجلالة: الجليلة الضخمة. وعقيلة المال: خيره وأفضله. والويبل: العصا، شبه به الشيخ لهزله وضميره. واليلندد: الشديد الخصومة.

(٨) تَرَّ: طنّ وندر لما ضربه بالسيف. والوظيف: ما بين الرسغ والساق. والمؤيد: الداهية.

(٩) ماذا ترون لشارب: أي ماذا ترون في أمره.

(١٠) يزدد: أي إن لم تكفوا أقصى البرك وتردوه إلى أوله يزدد في نفاره.

شرح ابن السكيت، شديد الخصومة لطرفة، لكثرة عقره من إبله، لم ينفعه صياحه في وجه طرفة وشكواه من اعتدائه على أنجب نوقه وأسمنها، فصاح بالقوم: دعوه، وكفوا أقصى البرك الذي نفره هذا السكر المسلح قبل أن يعمن في نفاره. وقد بدا طرفة في هذا المشهد مغامراً جريئاً، شاهراً سيفه يعقر النوق.

ويختصر طرفة تفاصيل تهيئة تلك الناقة السمينة التي عقرها للشواء، وشعل النيران، ويفجؤك بمشهد الشرب السامر اللاهي، وحوله الإماء يشتون حوار الناقة الغض، ويسعين عليه وعلى ضيفانه بقطع اللحم المشوي، معبراً عن ذلك كله بكلمات قصار، ولمسات توجي بهذه الأعمال<sup>(١)</sup>:

فَظَلَّ الإِمَاءُ يَمْتَلِنَنَّ حُورَاهَا وَيُسَعَى عَلَيْنَا بِالسَّدِيفِ الْمُسْرَهْدِ<sup>(٢)</sup>  
وهو في الجّد سيد في حلقة القوم، وفي اللهو ما جن في الحوانيت، يعتل الكؤوس، ويقدمها لزائريه<sup>(٣)</sup>:

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد<sup>(٤)</sup>  
متى تأتي أصبحك كأساً رويةً وإن كنت عنها ذا غنى فأغن وأزدد<sup>(٥)</sup>  
ونداماه من الطبقة الرفيعة، بيض كالنجوم، أعلام مشاهير. وقينته حسناء مرقفة، تروح عليهم بشياها الموشاة المصبوغة بالزعفران، مكشوفة الصدر، بضّة المتجرّد، رفيقة بجسّ الندامي، إذا طلبوا منها الغناء انبرت تغني في عفوية ويسر وبراعة، وهي تنو إلى الشرب اللاهي بطرفها الفاتر، لا تلقى في غنائها عنتاً ولا رهقاً<sup>(٦)</sup>:

(١) معلقته: ٩٢.

(٢) يمتلن حوارها: أي يشتونه في الملة، وهي الرماد الحار والجمر. والحوار: ولد الناقة. والسديف: شقق السنام. والمسرهّد: الحسن الغذاء، السمين.

(٣) معلقته: ٤٥، ٤٦.

(٤) الحوانيت: بيوت الخمارين.

(٥) أصبحك: أسقيك صبحاً، وهو شرب الغداة. والروية: المروية.

(٦) معلقته: ٤٨، ٤٩، ٥٠.

نَدَامَايَ بِيضُ كَالنُّجُومِ ، وَقَيْنَةٌ تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجَسَّدٍ (١)  
 رَحِيبٌ قَطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا ، رَفِيقَةٌ بِجَسِّ النَّدَامَى ، بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ (٢)  
 إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينَا انْتَبَرَتْ لَنَا عَلَى رَسْلِهَا ، مَطْرُوقَةٌ لَمْ تَشُدِّدِ (٣)

ولقد عكف على معاقره الخمرة وجني قطوف اللذات ، وأنفق في سبيل ذلك كل ما في حوزته من طريف وتالد ، حتى ضجّت العشييرة من تبذيره المال وإفراطه في تبديده ، فتجافت عنه ، واعتزلته كما يعتزل الجمل الأجر المهنوء بالقطران (٤) :

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ وَلَذَّنِي وَيَبْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي (٥)  
 إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشيِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعْبَدِ (٦)  
 ويعجب طرفه بخفته وظرفه وذكائه المتوقد ، فيقول منتشياً مزهواً فخوراً (٧) :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَاشُ كِرَاسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ (٨)  
 وبتيه بكرم محتده ، وطيب أرومته ، وشرف بيته ، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم ، فيتغنّى بذلك كله قائلاً (٩) :

وَإِنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَمِيعُ تَلَاقِنِي إِلَى ذِرْوَةِ المَجْدِ الكَرِيمِ المُصَمَّدِ (١٠)

(١) البرد: ثوب وشي . والمجسد: الثوب المصبوغ بالزعفوان المشبع .

(٢) قَطَابُ الجَيْبِ: مجتمعه حيث قُطِب . وصف قَطَابُ جيبها بالسعة ليبدو صذرهما . والبضّة: الناعمة .

والمُتَجَرِّدُ: ما سترته الثياب من الجسد .

(٣) المَطْرُوقَةُ: الفاترة الطرف . ولم تشدّد: أي لم تجتهد ، وإنما أخذت عفوها في الغناء .

(٤) معلقته: ٥١ ، ٥٢ .

(٥) التشراب: الشرب الكثير . والطريف: ما استحدثته من المال . والمتلد: ما كان قديماً عندك .

(٦) المُعْبَدُ: المذلل الطلي بالقطران .

(٧) معلقته: ٨٢ .

(٨) الضرب: الخفيف من الرجال الطريف . والخشاش: الماضي في الأمور الذكي . كراس الحية: أي

خفيف الروح . والمتوقد: الكثير الحركة .

(٩) معلقته: ٤٧ .

(١٠) المُصَمَّدُ: الذي يصمد إليه الناس ويلجؤون في حوائجهم .

ويعتز بشخصيته المتواضعة المحببة، الرفيعة العزيزة في آن، فهو معروف لدى الفقراء والمحتاجين، بارز بين الأغنياء المياسير؛ ذلك أنه يتواضع للفقراء ويحسن إليهم، ويخالط الأغنياء وينادهمم<sup>(١)</sup>:

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لَا يُنْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلَ هَذَاكَ الطَّرَافِ المُمَدَّدِ<sup>(٢)</sup>

وتتملء نفسه إعجاباً بأفعاله الحميدة، وصفاته الفذة، واضطلاعه بجلائل الأمور، فيوصي ابنة أخيه أن تنعاه بما هو أهله إن مات، وأن تشق عليه الجيب، ويحذرهما أن تسوي بينه وبين غيره من الرجال<sup>(٣)</sup>:

فَإِنْ مِتُّ فَانْعِنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشَقِي عَلَيَّ الجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِي؛ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي<sup>(٥)</sup>

هذا هو فخر طرفة الفردي، دار فيه حول محور ذاته، وأشاد بخلائقه وسجاياه وأفعاله.

### ب - فخره الجماعي :

أما فخره الجماعي، فقد توارت فيه شخصيته الفردية، وذابت في بوتقة القبيلة، فإذا هو يوقع على قيثارتها ألحان أمجادها ومفاخرها، ويشدو بمآثرها وأيامها، بضمير الجمع (نحن) الذي حلّ محل ضمير المتكلم المفرد في فخره الفردي. وقد أتى في هذا اللون من فخره القبلي برائع القول وبديعه، حتى إن الرافعي جعله شاعر القبيلة الأول في الجاهلية إذ قال: «ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلة بمجموع هذا المعنى غير شعر طرفة، فهو إذا فخر رأيته يتكلم بلسان ملك قد ضمن طاعة قومه واستمسك بميثاقهم»<sup>(٦)</sup>.

(١) معلقته: ٥٣.

(٢) الغبراء: الأرض، والفقير يُنسب إليها كأنه لا يملك شيئاً إلا التراب. والطراف: قبة من آدم، ولا تكون إلا للمياسير والأغنياء. والممدد: الذي مدّ بالأطناب.

(٣) معلقته: ٩٣، ٩٤.

(٤) شقي عليّ الجيب: يريد الثوب جميعه، لأن الشق من الجيب أمكن.

(٥) الهَمُّ هنا: ما يهَمُّ به من الأمور.

(٦) تاريخ آداب العرب ٣/٢٢٥.

وجماع فخر طرفة بقومه القيم الاجتماعية التي كان يعتز بها العربي في جاهليته، من شجاعة وكرم وحلم وبر ووفاء وسيادة وشرف.

لقد انتشت نفس طرفة بشجاعة قومه، وشملت بحسن بلائهم في الحروب، وانتصاراتهم التي أحرزوها في أيامهم المشهورة في التاريخ. ومن أهمها يوم تحلاق اللّم الذي يقول فيه<sup>(١)</sup>:

سَائِلُوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا      بِقَوَانَا يَوْمَ نَحْلِقُ اللَّمَّ<sup>(٢)</sup>  
يَوْمَ تُبْدِي الْبَيْضُ عَنَ أُسُوقِهَا      وَتَلْفُ الْخَيْلُ أَعْرَاجَ النَّعْمِ<sup>(٣)</sup>

يصور طرفة في هذه القصيدة مدى اعتزازه بهذا اليوم، يوم تحلاق اللّم، الذي انتصفت فيه بكر من تغلب، وقد أمر قائدُها الحارث بن عباد بحلق رؤوسهم، ليكون ذلك علماً يعرف بعضهم بعضاً. وقد صور طرفة في البيت الثاني المول الذي شعرت به تغلب، حتى إن نساءها حسرن عن أسوقهن مشمرات للهرب، وراحت خيل بكر تستاق لإبل تغلب. وقد أبرز طرفة هذا المشهد ببراعة وفي ألفاظ معدودات. فالصورة في المصراع الأول رسمتها عبارة «تبدي البيض عن أسوقها»، وفي المصراع الثاني رسمت الصورة عبارة «تلف الخيل أعراج النعم»، وترك القارئ يتصور مشهد الفزع في هرب النساء، ومشهد النصر والغنيمة في لف الخيل قطعان النعم.

لقد وقف طرفة في علياء رؤيته لمفاخر قومه الحربية يجليها، مشقّقاً في تجليتها أطراف القول، متنوعاً أساليب العرض، ملوّناً الصور التي أبرزهم فيها أعزة شجعاناً صبراً عند اللقاء.

إنه ليفخر بشجاعتهم وإقدامهم وصبرهم في مواضع كثيرة من قصائده، ولكنه في كل مرة يعرض لك جانباً من هذه الشجاعة وذاك الإقدام وذلك الصبر، يتمم

(١) ديوانه: ١٠٤.

(٢) التحلاق: الحلق. واللّم: جمع لمة، وهي الشعر يلمّ بالمنكب.

(٣) البيض: النساء. وتبدي البيض عن أسوقها: يرفعن ذيولهن للهرب. والأعراج: جمع عرج وهو ما بين الخمسين والمئة إلى المتئين من الإبل. وتلف الخيل النعم: أي تجمعها وتسوقها.

الصورة الكبيرة التي انطبعت في مخيلته عن شجاعتهم الفذة، وإقدامهم النادر،  
وصبرهم العجيب، في مبالغة جميلة محببة.

فقومه شجعان يحمون السُّرْب، واضحي الأوجه، لا تبدو عليهم كآبة الجزع  
في الحروب، يخوضون غمارها بحسامات رُسب تقطع اللحم والعظم، وتبتر  
المعاصم، ويقنا جرد ملساء، وبخيل ضخمة صلبة نجبية، منسوبة، سبابة،  
ضامرة، عاضة على اللجم<sup>(١)</sup>:

حِينَ يَحْمِي النَّاسُ نَحْمِي سَرَبَنَا      وَاضِحِي الْأَوْجِهَ مَعْرُوفِي الْكَرَمِ<sup>(٢)</sup>  
بِحُساماتِ تَراها رُسباً      فِي الضَّرِيباتِ مُتَراتِ العُصْمِ<sup>(٣)</sup>  
وَفَحولِ مَنِكَلاتِ وَقِحِ      أَعْوجِياتِ عَلى الشَّأوازِمِ<sup>(٤)</sup>  
وَقَناجِرِدِ وَخَيْلِ ضُمُرِ      شُرْبِ مِنْ طُولِ تَعْلَاقِ اللُّجَمِ<sup>(٥)</sup>

ويتنشي طرفه بحسن بلاء قومه في الحروب، فيزهو باسمهم منوهاً بكثرة  
ضحاياهم بين سنابك الخيل، تعكف على جثتهم الطيور الجارحة<sup>(٦)</sup>:

نَذَرُ الْأَبْطالَ صَرَعى بَينَها      تَعَكُفُ العِقبانُ فِيها والرَّخِمِ<sup>(٧)</sup>  
وهم لشدة بأسهم لا يثبت أمامهم عدو، إذ يرى بأمر عينه الموت الرؤم<sup>(٨)</sup>:  
وَإِذا المَغِيرَةُ لِلهَياجِ غَدَتْ      بِسُعارِ مَوْتِ ظاهِرِ دُغْرَةِ<sup>(٩)</sup>

(١) ديوانه: ١٠٧.

(٢) السُّرْب : المال الراعي. واضحي الأوجه: أي لا تبدو عليها كآبة الجزع في الحروب.

(٣) الرُسب: التي ترسب في الضريبة، أي تدخل فيها. والمترات: القاطعات. والعُصم: المعاصم.

(٤) (٥، ٤) تقدم البيتان وشرحها ص ١١٤.

(٦) ديوانه: ١١٠.

(٧) بينها: أي بين سنابك الخيل.

(٨) ديوانه: ١٢٣.

(٩) المغيرة: الخيل. والهياج: الحرب.

وَلَوْا وَأَعْطَوْنَا الَّذِي سَأَلُوا مِنْ بَعْدِ مَوْتِ سَاقِطِ أَرْزُورُ(١)  
إِنَّا لَنَكْسُوهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا ضَرْباً يَطِيرُ خِلَالَهُ شَرُّورُ(٢)

إنه لتصوير رائع لشدتهم ورهبتهم في قلوب الأعداء، إذ ما تكاد خيلهم تغير بنار الموت المستعر المخيف، حتى يولّي أعداؤهم الفرار، ويعطوهم ما يطلبون.

وتتجلى روعة الصورة في جعله للموت أزرأ تسقط، فيتكشف لأعين أعدائهم مخيفاً فيولون الأدبار، وفي جعله الضرب كسوة للخصوم؛ إذ علوهم به، فحلّ منهم محلّ الكسوة، وأحاط بهم من كل جانب إحاطة الكسوة بالجسم، وإنما لكسوة رهيبة يتطاير منها الشرر.

وقديتأتى إلى إبراز شجاعتهم بهذا الاستفهام الموحى بعظمة المستفهم عنه المجهولة للناس، والتعجب من حقيقته الفذة النادرة(٣):

وَهُمْ مَا هُمْ إِذَا مَا لَبَسُوا نَسَجَ دَاوُودَ لِبَاسٍ مُخْتَصِرٌ(٤)  
وَتَسَاقَى الْقَوْمُ كَأْساً مُرَّةً وَعَلَا الْخَيْلَ دِمَاءُ كَالشَّقِيرِ(٥)

وإنه لوصف بديع لاشتعال نار الحرب واحتدام وطيسها، مثل له بتساقى الأبطال كأس المنون المرّة، وباصطباغ الخيل بالدماء القانية.

ومن صفات قومه العالية التي انتشت نفسه بالفخر بها صبرهم ووقارهم عند اللقاء، وفي ساعات الشدة والروع، ولذلك نوع فيها أساليب القول، وعدّد الصور والمشاهد في غير مكان من قصائده.

(١) ولّوا: أي الأعداء، ولّوا على أعقابهم منهزمين مدحورين. وموت ساقط أرزور: أي موت مكشوف للأعين مخيف.

(٢) نكسوهم ضرباً: نعلوهم به.

(٣) ديوانه: ٥٨.

(٤) هم ما هم: تفخيم وتعجب، كأنه قال: أي رجال هم. ونسج داوود: الدروع. والباس: شدة الأمر. والمختصر: المحضور المجتمع إليه.

(٥) الشقير: شقائق النعمان.

فهم شجعان كأسد الغاب، إذا أغاثوا رأيتهم أقوياء، وقرأ عند اللقاء، لا ترتفع أصواتهم باللغظ وفضول الكلام<sup>(١)</sup>:

أَسَدُ غَابٍ، فَإِذَا مَا فَزَعُوا      غَيْرُ أَنْكَاسٍ وَلَا هُوجٍ مُذْرٌ<sup>(٢)</sup>  
وهم راجحو الرأي، وقرأ عند اللقاء بشهادة بكر، يكشفون الأذى والضّر عن غيرهم، ظاهرون على كل غالب صنيديد<sup>(٣)</sup>:

وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بِنُكْرٍ أَنْسَا      فَاضِلُو الرَّأْيِ فِي الرُّوعِ وَقُرٌ<sup>(٤)</sup>  
يُكْشِفُونَ الضَّرَّ عَنْ ذِي ضُرِّهِمْ      وَيُسِرُّونَ عَلَى الْأَنْبِيِ الْمُبِيرِ<sup>(٥)</sup>  
إنه لإعلان وتأكيد وتقرير لقيم اجتماعية عُرف بها قومه بنوقيس بن ثعلبة، وعرفتهم بها بكر، فأصبحت خليقة من خلائقهم، وسجية من سجاياهم، يتحدث بها الناس، ومنها أنهم قر عند اللقاء.  
وما قاله في هذا المعنى<sup>(٦)</sup>:

نَمِسْكَ الْخَيْلَ عَلَى مَكْرُوهِهَا      حِينَ لَا يُمَسِّكُهَا إِلَّا الصُّبْرُ<sup>(٧)</sup>  
حِينَ نَادَى الْحَيَّ لَمَّا فَزَعُوا      وَدَعَا الدَّاعِيَ وَقَدْ لَجَّ الدُّعْرُ<sup>(٨)</sup>

إنهم ليمسكون الخيل على ما تكره من شدة الحرب، فيحجزونها عن الفرار في ساعات الكرب والشدة، إذ لا يمسكها عن ذلك إلا المغاوير الصُّبر عند اللقاء،

- 
- (١) ديوانه: ٥٦.  
(٢) فزعوا: أغاثوا. والأنكاس: جمع نكس، وهو الضعيف الدني. والهوج: جمع أهوج، وهو الأحمق. والمذّر: جمع هذور، وهو الكثير الكلام.  
(٣) ديوانه: ٦١.  
(٤) في الروع وقر: لا نخفت عند الروع، بل نثبت ونتوقر.  
(٥) يبرون: على الأنبي المير: يفلبون ويظهرون. والأنبي المير: الغالب.  
(٦) ديوانه: ٦٢.  
(٧) مكروهاها: ما تلقاه من شدة الحرب.  
(٨) لج الدعر: دام واشتد.

وذلك حين ترتفع أصوات الحي مستغيثين فزعين، ويدعو الداعي إلى النجدة، وقد لَفَّ الناس دُعر شديد.

وتمور نفس طرفة الشابة المتأججة بالحماس، المتعشقة لحديث البطولة والفداء، تمور بالانفعال بهذه المعاني الحماسية، فيصف تدفق قومه إلى الغارة المنصبة على الأعداء، وصفاً يبرزهم حماة أشداء في ساعات البأس والشدة، لا يولون الأدبار<sup>(١)</sup>:

دُلِقَ فِي غَارَةٍ مَسْفُوحَةٍ      وَلَدَى الْبَأْسِ حُمَاةٌ مَا نَفَرُوا<sup>(٢)</sup>

ومن هذا الباب قوله أيضاً في وصف خيل قومه المغيرة على الأعداء<sup>(٣)</sup>:

دُلِقَ الْغَارَةَ فِي إِفْرَاعِهِمْ      كَرِعَالِ الطَّيْرِ أُسْرَاباً تَمَرُّوا<sup>(٤)</sup>

تَذُرُّ الْأَبْطَالَ صَرَعى بَيْنَهَا      مَا يَنْبِي مِنْهُمْ كَمِيٌّ مُنْعَفِرٌ<sup>(٥)</sup>

فالخيل مندلقة في الغارة كأسراب الطير، تمر مسرعة تحمل فرسانها إلى مستغيثهم. ويختصر المشهد حيث اشتبك الفريقان، واحتدمت المعركة، فإذا نحن أمام أبطال صرعى بين هذه الخيل المندلقة في الغارة، وقد عُفرت جباههم بالثرى.

إنها صورة سريعة خاطفة في بيتين، الخيل فيها كسرب من الطائرات مرت كلمح البصر، فإذا ضحاياها من الأبطال صرعى يتخبطون بدمائهم، وما أجمل كلمة (دُلِقَ) في هذا المقام! وما أشد دلالتها على تصوير اندفاع الأبطال أو الخيل إلى الغارة! إنها لتوحي بانصباب جموعهم في الغارة المسفوحة المفتوحة، كأنهم يندلقون في ساحتها اندلاقاً، ويتتابعون إليها تتابعاً سريعاً، لا يكاد يمسكهم عن الاندلاق والاندفاع شيء.

(١) ديوانه: ٦٢.

(٢) دلق في غارة: متقدمون فيها مندفعون.

(٣) ديوانه: ٦٦.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١١٤.

(٥) ما يَنْبِي: ما يزال. والكمي: الشجاع. والمنعفر: الملتصق بالعفر وهو التراب.

ومن أبياته الجميلة في الفخر، النابضة بعاطفة الاعتزاز بقومه الذابيين عن الحمى قوله<sup>(١)</sup>:

وَنَحْنُ إِذَا مَا الْخَيْلُ زَايِلَ بَيْنَهَا      مِنْ الطَّعْنِ نَشَاجُ مُخِلٌ وَمُزْعَفٌ<sup>(٢)</sup>  
وَجَالَتْ عَذَارَى الْحَيِّ شَتَّى كَانَهَا      تَوَالِي صُورٍ وَالْأَسِنَّةُ تَرْعَفُ<sup>(٣)</sup>  
وَلَمْ يَنْحَمْ فَرْجَ الْحَيِّ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ      وَعَمَّ الدُّعَاءُ الْمُرْهَقُ الْمُتْلَهْفُ<sup>(٤)</sup>  
فَقَفْنَا غَدَاةَ الْغَبِّ كُلَّ نَقِيذَةٍ      وَمِنَا الْكَمِيُّ الصَّابِرُ الْمُتَعَرِّفُ<sup>(٥)</sup>

إنها من بديع الفخر بالشجاعة والذود عن الحمى في إطار رائع من الوصف الحي، فالخيل فرق بينها طعن ينشج بالدم، فيهزل الجسم، ويهد العافية، ويطفىء شعلة الحياة، ورُوع سرب العذارى في الحي بين الأسنان تقطر دماً، فرحن مذعورات يجلن هنا وهناك يلود بعضهن ببعض، كأنهن قطع من حمر الوحش، وتبدي لكل ذي عينين أنه لن يذب عن الحمى المهدد، إلا كميّ أبي، وانطلق صوت المكرويين المرهقين المتلهفين للنجدة، يعم بدعائه الناس جميعاً. في مثل هذه الساعة العصبية يأتي دورنا، فرد السبايا بكل صنديد شجاع صبور.

هذا هو جانب الشجاعة والبأس، جلّاه طرفة في فخره بقومه، فخلدهم شجعاناً أعزّة صبراً عند اللقاء.

أما الجانب الثاني الذي أشاد به طرفة من خلّاتق قومه، فهو الكرم والسخاء. والكرم هو قسيم الشجاعة في الحياة العربية الجاهلية، القائمة على الغزو والكفاح في فياف وفلوات قاحلة ضنينة بالخيرات. فلا غرو أن يكونا عمادي المجد،

(١) ديوانه: ١٢٧.

(٢) زایل: قرق. والنشاج: طعن ينشج بالدم، أي يسمع له صوت. والمخل: الذي ينزف بالدم فيضعف صاحبه. والمزحف: القاتل.

(٣) التوالي: الأواخر. والصوار: قطع البقر.

(٤) فرج الحي: موضع المخافة، وهو الثغر. عم الدعاء: أي عم الناس جميعاً ولم يخص رهطه الأذنين.

(٥) فنتا: رددنا ورجعنا. غداة الغب: يعني غداة اليوم الذي بعد يوم الحرب. والنقيذة: المستنقذة من قوم آخرين. والكمي: الشجاع. والمتعرّف: الذي يسأل عن رئيس الأعداء ليحمل عليه فيقتله.

ودعامتي السيادة والشرف، بهما معاً يمدح المادحون، وبهما معاً يفتخر المفتخرون.  
ومن هنا انطلق طرفة يفخر بكرم قومه كما افتخر بشجاعتهم، وجاء فخره  
بكرمهم وشجاعتهم جنباً إلى جنب.

والكرم أعظم ما يكون في أيام الشدة والجذب، ومن ثم تفنن طرفة في وصف  
الشدة وعرض كرم قومه فيها، كما تفنن في وصف مظاهر الكرم، من موائد سخية  
تُصَفّ للمعوزين، وإماء تقوم على طهي القدور، وضرب بالقداح على أعضاء  
الجزور لتوزع على الفقراء.

فمن فخره بكرمهم قوله في قومه بني سعد بن مالك بن ضبيعة، الذين  
يجودون حين يشتد الزمان، وتقسو الحياة، وتهزل الإبل حتى تذوب أسنمتها<sup>(١)</sup>:

رَأَيْتُ سُعُوداً مِنْ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ      فَلَمْ تَرَعَيْنِي مِثْلَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ<sup>(٢)</sup>  
أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً يَعْقِدُونَهَا      وَخَيْرًا إِذَا سَاوَى الذَّرَى بِالْحَوَارِكِ<sup>(٣)</sup>  
وَأَنَّمَى إِلَى مَجْدٍ تَلِيدٍ وَسُورَةٍ      تَكُونُ تُرَائِماً عِنْدَ حَيِّ لِهَالِكِ<sup>(٤)</sup>

ومن هذا الفخر الفاخر ما ارتفع به صوته مجلجلاً، مزهواً فخوراً بكرمهم  
الواسع الشامل وقت الشدة في بيته الذائع المشهور وما تلاه من أبيات<sup>(٥)</sup>:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى      لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ<sup>(٦)</sup>

(١) ديوانه: ٨٣.

(٢) السعود: جمع سعد، وأراد سعد بن مالك بن ضبيعة.

(٣) الذرى: الأسنة. والحارك: مقدم السنام. وتساويها يكون عند الهزال.

(٤) أنمى إلى المجد: أشد ارتفاعاً وسمواً إليه. والتليد: القديم. والسورة: المنزلة من الشرف. وعند حي  
هالك: أي من هالك.

(٥) ديوانه: ٦٠.

(٦) المشتاة: الشتاء. والجفلى: أن يعم بدعوته إلى الطعام ولا يخص واحداً دون آخر. والآدب: الداعي  
إلى المادبة. وينتقر: أي يدعو النقرى، وهي أن يخص بعض الناس بدعوته دون بعض.

حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ      أَقْتَارَ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قَطْرٍ<sup>(١)</sup>  
بِحِفَانٍ تَعْتَرِي نَادِيَنَا      مِنْ سَدِيفٍ حِينَ هَاجَ الصُّنْبِرُ<sup>(٢)</sup>  
كَالْجَوَابِي لِاتْنِي مُتْرَعَةً      لِقَرَى الْأَضْيَافِ أَوْ لِلْمُحْتَضِرِ<sup>(٣)</sup>  
ثُمَّ لَا يَخْزُنُ فِينَا لَحْمَهَا      إِنَّمَا يَخْزُنُ لَحْمُ الْمُدْحِرِ<sup>(٤)</sup>

إنها صورة ماثلة ناطقة بكرمهم الشامل الذي لم يخص الأغنياء ومن يرجون عندهم المنفعة، وإنما هو كرم يعم الناس جميعاً طلباً للمجد واكتساب الحمد. وهو كرم مضاعف، لأنه جاء في وقت الشدة وقرم الناس إلى اللحم، حتى إن رائحة الشواء عند القوم المجهودين الجياع أضحت بمنزلة رائحة العود. وهو كرم غزير، تجل في الحفان المترعة باللحم، كأنها الحياض العظيمة، لا تني تقدم للضيف الوافد والنازل المقيم، لا يخزن من لحمها شيء فيفسد، بل تملأ كل يوم بذبح طري جديد.

ومن فخره الرائع بكرم قومه وقت الشدة في إطار من الوصف بديع لهذه الشدة التي أطبقت على الإنسان والحيوان في الضحراء القاسية قوله<sup>(٥)</sup>:

إِنَّا إِذَا مَا الْغَيْمُ أُمْسَى كَأَنَّهُ      سَمَاحِيقُ ثُرْبٍ وَهِيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفُ<sup>(٦)</sup>  
وَجَاءَتْ بِصُرَادٍ كَأَنَّ صَبِيعَهُ      خِلَالَ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ كُرُسُفُ<sup>(٧)</sup>

- (١) القطار: رائحة الشواء. والقطر: العود الذي يتخربه. يقول: نحن نطعم في شدة الزمان إذا كان ريح الشواء عند القوم بمنزلة رائحة العود، لما هم فيه من الجهد والحاجة إلى الطعام.
- (٢) تعتري: تلم ندياً وتأتيه. والنادي: مجلس القوم. والسديف: قطع السنام. والصنبر: أشد ما يكون البرد.
- (٣) الجوابي: جمع جابية، وهو الحوض العظيم. والمحتضر: الحاضر مع القوم النازل على مائتهم.
- (٤) يخزن اللحم: تغيرت رائحته وفسد.
- (٥) ديوانه: ١٢٦.
- (٦) السمحيق: شحم دقيق. وثرثب الشاة: شحمها. وهي حمراء: أي الريح، لاهمرار السماء.
- (٧) الصرّاد: سحب لا ماء فيه. والكرسف: القطن.

وجاء قَرِيحُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا إلى الدِّفءِ، والرَّاعي لَهَا مُتَحَرِّفٌ (١)  
نَرْدُ العِشَارِ المُنْقِيَاتِ بِشَطِيْهَا إلى الحَيِّ حَتَّى يُمْرِعَ المُتَصَيِّفُ (٢)  
تَبِيْتُ إِمَاءِ الحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الأَشْعَثُ المُتَجَرِّفُ (٣)

إنها لوحة تمثل الشتاء بسماؤه المغبرة الحمراء الكالحة، ورياحه العاصفة المتربة، وبرده القارس، وجليده المتساقط كأنه القطن، يرقص فيها فحل الإبل مسرعاً، متقدماً الناقه على غير عاداته طلباً للدفع، والراعي من شدة البرد عنها بعيد.

في هذه الشدة، نرد كرام الإبل من العشار السمان إلى الحي، لتذبح وتقدم للعفاة الجياع، ويظل هذا دأبنا حتى ينبت البقل، وتمرع الأرض، وتخصب المصايف.

وتبقى إماء الحي في طهي دائم للقدور، تقدم الطعام للبؤساء الذين يأوون إليهم، حتى تنقشع الشدة عن العفاة والمحتاجين.

وتتجلى قيمة هذا الكرم الذي أسبغه طرفه عليه وعلى قومه في ردّهم كرام الإبل من العشار السمان وذبحها، والعشار من الإبل يُضنّ بها، لأنها ستلد بعد قليل، ولكنه الكرم الغزير الجارف الجود يودي بالعشار على قيمتها وغلاء أثمانها.

ومن هذا الضرب من الفخر الذي حرص فيه طرفه على تصوير الشدة تصويراً بارعاً، وإبرازها قاسية كالحجة، تنبع في وسطها نبعه الإحسان والجود قوله (٤):

(١) القريح: الفحل. والشول: جمع شائلة، وهي التي خفّ بطنها وضرعها. والرقص: ضرب من السرعة، أي جاء فحل الإبل قبل الناقه يبادر الدفع وقد كان قبل ذلك خلفها لا يفارقها. والراعي لها متحرّف: أي يمشي بعيداً عنها من شدة البرد.

(٢) العشار: الحوامل من النوق. والمنقيات: ذوات النقي، وهو الشحم والمخ. والشطي: العظام.

(٣) الأشعث: المغبر الرأس الزري الهيئة. والمتجرّف: الذي جرفت السنون ماله.

(٤) ديوانه: ١٢١.

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا  
يَوْمًا وَدُونِيَتِ الْبُيُوتِ لَهُ  
رَفَعُوا الْمَنِيحَ وَكَانَ رِزْقُهُمْ  
شَرْطًا قَوِيمًا لَيْسَ يَخْبِسُهُ  
أَزَمَ الشِّتَاءُ وَدُوخَلَتْ حُجْرَةٌ<sup>(١)</sup>  
فَقَتَّى قَبِيلَ رَبِّعِهِمْ قِرْرَةٌ<sup>(٢)</sup>  
فِي الْمُنْقِيَاتِ يُقِيمُهُ يَسْرَةٌ<sup>(٣)</sup>  
لَبَا تَتَابَعَ وَجْهَةٌ عَسْرَةٌ<sup>(٤)</sup>

إنه لفخر رائع بكرم قومه في أيام الشدة، حين يعرض الشتاء الناس ببرده، ويستكن الناس في حجرات متدانية، بعضها داخل بعض، ويشتد الجذب، وتتوالى موجات القر القارصة.

في هذه الشدة، يضربون على الجزور بقذح المنيح، وهو القذح المشهور بالفوز، ويستهمون على سمان الإبل، لتطعم الفقراء، لا يجسهم عن وجهتهم هذه عُسْر.

وقد عرض طرفه هذا كله في إطار من الوصف التفصيلي، مشخص لشدة البرد والجذب وحاجة الناس للكرم، وأبرز قومه في ذروة السخاء، والجود، إذ يلعبون الميسر، ويضربون بقذح المنيح بالذات، ورزقهم المنقيات، أي السمان من الإبل، لا يحجبهم عن ذلك عسر، وهذا دليل السيادة والغنى والشرف المتصل الواصب.

ووصف طرفه قومه الكرماء بأنهم أيسار لقمان، أي من أشرف من لعب الميسر، حين تغلي الشتوة القاسية لحم الجزور، وتجعله نادراً صعب المشتري. وآية كرمهم أنهم يتقامرون على أعضاء الجزور، ويوزعون ما يربحون منها على الفقراء<sup>(٥)</sup>.

(١) أزم الشتاء: اشتد برده.

(٢) دونيت البيوت: تدانت وقرب بعضها من بعض ليستكنوا من شدة البرد. وثنى قرره: تثنت عليهم القرر مرة بعد أخرى، وكذلك يكون إذا أجذب الزمان أصابهم البرد مرة بعد مرة.

(٣) المنيح: قذح يمتنع ويستعار لاشتهاره بالفوز. والمنقيات: ذوات النقي، وهو المخ، أراد سمان الإبل. يقيمه: يضرب به. والبسر: الضارب بالقذح.

(٤) تتابع وجهة: أخذ طريقة ووجهة. والعسر: العُسْر.

(٥) ديوانه: ٦٧.

وَهُمْ أَيَسَارُ لُقْمَانَ إِذَا أَغْلَتِ الشَّتْوَةُ أَبْدَاءَ الْجُرُزِ (١)

وهم كرام على المعسر متساعون، لا يلحون على غارمهم الفقير، بل يُنظرون المعسر إلى مَيْسَرَةٍ، ويعطي الموسر منهم المعسر (٢):

لَا يُلِحُّونَ عَلَى غَارِمِهِمْ وَعَلَى الْأَيْسَارِ تَيْسِيرُ الْعَسْرِ (٣)

ومن سجاياهم أنهم يزدادون كراماً على ما ينوبهم من عسر، كما تزداد الخيل الجياد جرياً على ما ينوبها من مشقة وتعب، ولا يذرون المخدول إن غاب عنه أقربوه وأنصاره (٤):

نَعْفُو كَمَا تَعْفُو الْجِيَادُ عَلَى مِ الْعَلَاتِ وَالْمَخْدُولُ لَا نَذْرَةَ (٥)  
إِنْ غَابَ عَنْهُ الْأَقْرَبُونَ وَلَمْ يُضْبَحْ بِرَيْقِ مَائِهِ شَجْرُهُ (٦)

وفي ذلك تصوير لأصالة الكرم وديمومته، وتمثيل للمروءة والغوث والرفد والإنعاش بديع، منتزع من الطبيعة الظمأى دوماً إلى الرفد والري والإنعاش.

وكما صور طرفة أصالة الكرم في قومه، كان يحلوه أن يؤكد ذلك بوصف مظاهر الكرم الحي والسخاء الغزير على موائدهم الحافلة بشهي الطعام (٧):

تَلَقَى الْجِفَانَ بِكُلِّ صَادِقَةٍ تُمَّتْ تُرَدَّدُ بَيْنَهُمْ حِيْرَةٌ (٨)  
وَتَرَى الْجِفَانَ لَدَى مَجَالِسِنَا مُتَحَيِّرَاتٍ بَيْنَهُمْ سُورَةٌ (٩)

(١) الأيسار: الذين يضربون بالقداح. وإذا شرف الضاربون قيل: أيسار لقمان، وهو لقمان بن عاد. والجرز: جمع جزور. وأبداء الجزر: أشرف أعضائها.

(٢) ديوانه: ٦٧.

(٣) غارمهم: الذي لهم عليه دين. والأيسار: الموسرون وتيسير العسر: أي يعطي الموسر منا المعسر.

(٤) ديوانه: ١٢٤.

(٥) نعفو: نزيد ونكثر. والعلات: المشقة والتعب.

(٦) يصبح: من الصُّبوح، ويريق كل شيء: أوله. وهذا مثل ضربه، والمعنى: لم يوصل ولم ينعش.

(٧) ديوانه: ١٢٢.

(٨) بكل صادقة: أي بلحم كل ناقة صادقة السمن. وتُمتت: تُم. والحير: الودك، وهو دسم اللحم.

(٩) متحيرات بينهم سورة: أي يتحير بين الأضياف بقايا الجفان.

فَكَانَهَا عَقْرَى لَدَى قَلْبٍ      يَضْفَرُ مِنْ أَغْرَابِهَا صَقْرَةٌ<sup>(١)</sup>  
 إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنْ سَيُذْرِكُنَا      غَيْثٌ يُصِيبُ سَوَامَنَا مَطْرَةٌ<sup>(٢)</sup>

فالجفان ممتلئة باللحم السمين المطبق بالشحم والدم، لا بلحم الإبل العجاف، وتراها في مجالسهم متحيرة بين الأضياف، بما فيها من بقايا الأطعمة التي لا تجد من يأكلها. وتبدو الجفان لضخامتها كأنها الذبائح، والشحم المذاب فيها كأنه بقية ماء مصفورة راكدة حول الحوض. وما أجمل تصويره الثقة بتعاطف الطبيعة معهم، جزاء وفاقاً على كرمهم المغدق، فلئن كانوا في قحط وجفاف، فهم على ثقة ويقين من أنهم سيخصبون ويصيب المطر سوامهم.

وتحملهم أصالة الكرم على نقل اللحم في الشتاء إلى الضيف والجار، كيلا يبقى في نفوسهم أثر من شهوة اللحم<sup>(٣)</sup>:

نُقِلَ لِلْحَمِّ فِي مَشْتَاتِنَا      تُحْرُ لِلنَّيْبِ طُرَادُ الْقَرَمِ<sup>(٤)</sup>

ولا يقتصر كرمهم على إطعام الطعام، بل يتعداه إلى جبر المحروب السليب الذي فقد ماله، يلجأ إليهم، فينون له بيتاً، ويعطونه سواماً وخداماً، حتى يغدو كأنه واحد منهم<sup>(٥)</sup>:

خَيْرُ حَمِيٍّ مِنْ مَعَدِّ عُلْمُوا      لِكَفْيِي وَلِجَارِ وَابْنِ عَمِّ<sup>(٦)</sup>  
 يَجْبُرُ الْمَخْرُوبُ فِينَا مَالَهُ      بِنَاءِ وَسَوَامٍ وَخَدَمِ<sup>(٧)</sup>  
 والجانب الثالث الذي أشاد به طرفه من مفاخر قومه، عقولهم الراجحة،

(١) القُلب: جمع قلب، وهو البثر. والأغراب: جمع غرب، وهو الماء يسيل بين الحوض والبثر.

والصقرة: جمع صقرة، وهي بقية الماء في الحوض.

(٢) السوام: المال الراعي.

(٣) ديوانه: ١٠٦.

(٤) النيب: جمع ناب، وهي المسنة من الإبل. والقرم: شهوة اللحم.

(٥) ديوانه: ١٠٥.

(٦) الكفّي: المكان في النسب.

(٧) المحروب: من سُلب ماله. والسوام: الإبل السائمة في المرعى.

وأحلامهم الرزينة، فهم لا يفرحون إذا مسَّهم خير، ولا يجزعون إذا أصابهم ضرٌّ<sup>(١)</sup>:

إِنْ نُصَادِفَ مُنْفِيساً لَا تَلَقْنَا فُرْحَ الْخَيْرِ وَلَا نَكْبُو لِضُرِّ<sup>(٢)</sup>  
ومن خلالتهم الغرَّ الحسان الدالة على رجاحة عقولهم: اللين والصفح والتسامح والتواضع والبرّ، فهم يأخذون الناس بالعفو، ويغفرون ذنب المسيء، من غير فخر بأنفسهم، ولا تيه ولا إعجاب<sup>(٣)</sup>:

ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ غُفْرَ ذَنْبِهِمْ غَيْرُ فُخْرٍ<sup>(٤)</sup>  
أما مجالسهم فيسودها الوقار، وتعلوها الحرمة، يكفون فيها الجاهل عن غيّه وجهله، فتراها كالحرّم، لا رث فيها ولا فسوق ولا جدال<sup>(٥)</sup>:

نَزَعُ الْجَاهِلِ فِي مَجْلِسِنَا فَتَرَى الْمَجْلِسَ فِينَا كَالْحَرَمِ<sup>(٦)</sup>  
وهم إذ يزعون في مجالسهم ذا الجهل، يقربون السيد الحلیم الذي يضمند إليه في الحوائج، ويكبرونه وينصرونه<sup>(٧)</sup>:

يَزْعُونَ الْجَهْلَ فِي مَجْلِسِهِمْ وَهُمْ أَنْصَارُ ذِي الْحِلْمِ الصَّمَدِ<sup>(٨)</sup>  
والجانب الرابع الذي أعلى طرفه من ذكره في قومه: سيادتهم وشرفهم وسؤددهم.

فقد جعلهم في الذروة من السيادة والرفعة حين وصف فقيرهم بأنه سمح الخلق، وغنيهم جواد، وأشبيهم سيد، وأمردهم منخرق بالمعروف مغرق فيه<sup>(٩)</sup>:

(١) ديوانه: ٥٦.

(٢) النفس والنفيس: الشيء المتنافس فيه، وأراد به المال والغنى.

(٣) ديوانه: ٥٨.

(٤) ثم زادوا: أي على الخصال الحميدة التي عددها.

(٥) ديوانه: ١٠٦.

(٦) نزع الجاهل: نكفّه ونناه.

(٧) ديوانه: ١٣١.

(٨) الصمد: السيد الذي يضمند الناس إليه في حوائجهم.

(٩) ديوانه: ١٣١.

سَمَحَاءُ الْفَقْرِ أَجْوَادُ الْغِنَى سَادَةُ الشَّيْبِ مَخَارِيقُ الْمُرْدُ<sup>(١)</sup>  
وصورهم سادة أعزة عريقين في السؤدد والشرف وعلو المنزلة وجمال المظهر،  
تفوح من أردانهم رائحة المسك، ويمجرون أزهمهم ذوات الأهداب على الأرض<sup>(٢)</sup> :

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقَ الْمِسْكِ بِهِمْ يُلْحِفُونَ الْأَرْضَ هُدَابَ الْأُزْرِ<sup>(٣)</sup>  
وَرِثُوا السُّوَدَّةَ عَنْ آبَائِهِمْ ثُمَّ سَادُوا سُودَدًا غَيْرَ زَمِيرٍ<sup>(٤)</sup>  
وتأخذ طرفه نشوة النسب الرفيع الذي تحدر إليهم من ابني وائل، فيوقع  
الحنان الفخر به في اعتداد وزهو وشموخ<sup>(٥)</sup> :

وَتَفَرَّغْنَا مِنْ ابْنِي وَائِلٍ هَامَةَ الْمَجْدِ وَخُرْطُومَ الْكَرَمِ<sup>(٦)</sup>  
مِنْ بَنِي بَكْرِ إِذَا مَا نُسِبُوا وَبَنِي تَغْلِبَ ضَرَابِي الْبُهَمِ<sup>(٧)</sup>  
ويذكر من دلائل سيادتهم وعراقة أصلهم وتطلعهم الدائم للسؤدد،  
إمساكهم الخيل في أيام الشدة مها كلفهم ذلك من ثمن، إذ لا يمسكها في تلك الأيام  
وينفق عليها، إلا السيد الشريف الكريم السخي الجواد<sup>(٨)</sup> :

نُمِسِكَ الْخَيْلَ عَلَى مَكْرُوهِهَا حِينَ لَا يُمَسِّكَ إِلَّا ذُو كَرَمٍ<sup>(٩)</sup>  
لقد شدا طرفه بمآثر قومه، وتغنى بخلائقه وسجايها، ونوه بالقيم الاجتماعية  
التي تحلّى بها هو وقومه، فرفعتهم إلى أعلى المنازل، وفضلتهم على الناس جميعاً.

(١) سمحاء الفقر: أي تسهل أخلاقهم عند الفقر. والمخاريق: الذين يتخرفون بالمعروف، أي يتسعون فيه. والمرد: جمع أمرد، وهو الذي لم تخرج لحيته.

(٢) ديوانه: ٥٩.

(٣) عبق المسك بهم: أي رائحة المسك ملازمة لهم. يلحفون الأرض: يمجرون أزهمهم على الأرض من الخيلاء ويغطونها بها. وأهداب: الهدب.

(٤) الزمر: القليل.

(٥) ديوانه: ١٠٦.

(٦) الهامة: الرأس. والخرطوم: الأنف. يريد: أننا حللنا في أعلى الشرف وأرفع المنزلة في الكرم.

(٧) البهم: جمع بهمة، وهو الشجاع الذي لا يُذرى كيف يُؤتى له.

(٨) ديوانه: ١١٠.

(٩) على مكروهاها: أي على ما يُكره من ارتباطها لشدة الزمان وصعوبته.

وقد عرض هذا كله بأسلوب حار، يشي بحرارة عاطفته وشدة انفعاله بما يقول. فقد كان ثملاً بنشوة المفاخر التي يوقع ألحانها ويتغنى بها، ومن ثم كان يقدر ألقاظه من معين شعوره المتقد، ويغمسها بحوضه النفسي المتأجج بالانفعال الصادق، فتأتي ألقاظه كريمة فصيحة جزلة فخمة، تحكي ما اعتلج في نفسه من مشاعر الاعتزاز والزهو والافتخار، وتأتلف في حمياً عاطفته المتقدة في جمل حسنة السبك، بديعة النسيج، محكمة التأليف، لا تشكو قلقاً ولا نبواً ولا معازلة.

والتمعت في هذا الفخر صور متألقة بديعة، انبثقت من شاعرية طرفة الثرة، أبرزت المآثر ولونتها، وزادت معانيها سموً ووضوحاً وجمالاً وقوة، وألبستها ثوباً فضفاضاً من المبالغة، نسجها خيال شاعر حدث مختال فخور.

## الهجاء

ضرب طرفة في الهجاء بالسهم الصائب، ورجم فيه بالشهاب الثاقب، فكان واحداً من أولئك الشعراء الذين وضعوا من قدر مَنْ هَجَّوهُ، كما يقول أبو عبيدة<sup>(١)</sup>. وساعده على النبوغ فيه عوامل خارجية، وعوامل داخلية.

أما العوامل الخارجية، فهي الظروف الصعبة التي واجهها طرفة في حياته، من جور أعمامه الذين عَدَّوا على ماله ومال أمه، ولم يحسنوا كفالتة، ومن تعرضه للوقوف بباب عمرو بن هند وأخيه قابوس، وَقْفَةَ المتعرض للفضل، المستجدي للمعروف، وخيبة أمله في هذين الرجلين، وفي صهره عبد عمرو بن بشر، إذ أفشى سرّه، وأوقعه مع الملك عمرو بن هند في حرج كبير. يضاف إلى هذا ما كان بين حَيِّي ابن وائل، بكر وتغلب، من تنافس، يذكي أواره إحن وأحقاد، تجمعت عبر السنين في حرب البسوس التي أكلت أخضر القبيلتين ويابسهما.

وأما العوامل الداخلية، فتتجلى في الاستعداد النفسي في شخصية طرفة التي نشأت على الاعتداد بشرف المحتد، والجرأة على قومه وغيرهم إذا ما عارضوا له رغبة، والتهكّم على مخالفيه في الرأي والمذهب، إلى جانب ما حباه الله من حدة ذهن، وسلطة لسان، واستعداد فطري للهجاء، يتمثل في حادثة «استنوق الجمل»

(١) انظر البيان والتبيين ٤/٨٣.

المشهورة في معظم كتب الأدب<sup>(١)</sup>، يضاف إلى هذا كله سؤرة الشباب ونزقه واندفاعه، وسرعة انفعاله وتمييزه من الغيظ حين يرى الرياح تجري بما لا تهوى نفسه، وثقته بنفاذ هجائه، وقدرته على تأديب المعترضين سبيله، المتصدّين للكيد له. وكان يرى أن خير ما يصدّ عن المرء خيلاء المتكبر المعترض فيما لا يعنيه ضربة سيف، تكشف اللحم عن العظم، أو قوله جارحة من لسان بليغ نافذ، وإن جرح اللسان بالبيان الأصيل لمن أوسع الجراح<sup>(٢)</sup>

وَقَصْدُ عَنكَ مَخِيلَةَ الرَّجُلِ الْ  
عَرِيضِ مُوَضِّحَةً عَنِ الْعَظْمِ<sup>(٣)</sup>  
بِحَسَامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَأَلْ  
كَلِمِ الْأَصِيلِ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ<sup>(٤)</sup>  
كل هذه العوامل والظروف دفعت بطريقة إلى حلبة الهجاء، فسدد سهامه إلى المعتدين عليه أو على قبيلته.

هجا عمرو بن هند وأخاه قابوساً، وبني المنذر، وصهره عبد عمرو بن بشر، وحنانة الحاجب، وقبيلة تغلب. وأفرد لهجاء هؤلاء ثمانى قصائد من حر شعره ومتخيرته، لما تميّز به من صدق في اللهجة، وبراعة في التصوير، وعفوية في التعبير.

أ - هجاء عمرو بن هند:

تأججت نفس طرفة غيظاً من عمرو بن هند وأخيه قابوس، حينما دفعته الظروف القاسية الصعبة للوقوف ببابها، متعرضاً لفضلها، فإذا هما لا يأبهان له، ولا يلتفتان إلى عبقريته الشعرية المفتحة.

وعزيز على العبقرى النابغة جدّ عزيز، أن يبذل نفسه وعبقريته ونبوغه، فلا يجد من يصغي إليه أو يأبه له، فكيف إذا عانى ذلك من رجلين، استهواهما الصيد، فخصّصا له نصف عمرهما؛ إذ كانا يركبان يوماً للصيد، ويجلسان لاستقبال الناس

(١) انظر ص ٤٤.

(٢) ديوانه: ٩١.

(٣) المخيلة: الخيلاء والتكبر. والعريض: المعترض فيما لا يعنيه. والموضحة: شجة تبدي عن وضع العظم، أي بياضه.

(٤) أرغب: أوسع. والكلم: الجرح.

يوماً، غير آبهين لوقوف الناس ببابها، مستخفين بكرامات الناس وأقدارهم؟  
ويبدو أن طرفه ضاق ذرعاً بهذه الوقفة الذليلة ببابها، وحز في نفسه أن  
يضطر لاستجداء هذين الرجلين المنصرفين عن رعاية مصالح الناس، اللاهيين  
عن رعيتهما برحلات الصيد ومجالس اللهو والشراب، فراح يسخر منهما، متمنياً  
أن يكون لدى هؤلاء الناس مكان الملك عمرو بن هند نعجة مرضعة خوّارة، قليلة  
الصفوف، غزيرة اللبن، كثيرة الأولاد، ألوف للذكور، لا تنفر منهم كما ينفر هذا  
الملك الأحمق من الناس<sup>(١)</sup>:

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو      رَغَوْثاً حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَخَوُّرُ  
مِنَ الزُّمِرَاتِ أَسْبَلَ قَادِمَاهَا      وَضَرَّتْهَا مُرْكَنَةٌ دُرُورُ  
يُشَارِكُنَا لَنَا رَخْلَانِ فِيهَا      وَتَغْلُوهَا الْكِبَاشُ فَمَا تَنْوَرُ  
ثم يلتفت إلى أخيه قابوس، فيرميه بالحماقة والطيش<sup>(٢)</sup>:

لَعَمْرُكَ إِنْ قَابُوسَ بْنَ هِنْدٍ      لَيَخْلِطُ مُلْكُهُ نُوكَ كَثِيرُ<sup>(٣)</sup>  
ويعود بعد ذلك إلى عمرو بن هند، فيجبهه بجوره وتقسيمه الأخرق للزمان،  
يوم للصيد، ويوم لوقوف الناس أذلاء ببابه<sup>(٤)</sup>:

قَسَمْتَ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَخِيٍّ      كَذَاكَ الْحُكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ<sup>(٥)</sup>  
لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرْوَانِ يَوْمٌ      تَطِيرُ الْبَائِسَاتُ وَلَا نَطِيرُ<sup>(٦)</sup>  
فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمٌ نَحْسٍ      تُطَارِدُهُنَّ بِالْحَدَبِ الصُّقُورُ<sup>(٧)</sup>

(١) ديوانه: ٩٦. وقد تقدمت الأبيات وشرحها ص ٣١

(٢) ديوانه: ٩٧.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ٣١.

(٤) ديوانه: ٩٧، ٩٨.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.

(٦) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.

(٧) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.

وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَظَلُّ رَكْبًا      وَقَوْفًا مَا نُحِلُّ وَمَا نَسِيرُ<sup>(١)</sup>  
 فيوم الكروان يوم نحس كله، إذ تطاردها الصقور وتصيدهن، وأما يومنا  
 فيوم بؤس أيضاً، إذ نبقى واقفين ببابك أذلة صاغرين، فلا يؤذن لنا فنحلّ عندك،  
 ولا يؤمر لنا بالرجوع فنرحل عنك.

ولا يخفى ما في هذا الهجاء من قسوة ومجاهبة، إذ جعل أيام الملك عمرو بن  
 هند شراً كلها على الإنسان والحيوان، وعراه هو وأخاه قابوساً من فضيلتي العقل  
 والعدل، وسخر من عمرو سخرية أليمة حين تمنى أن يكون مكانه نعجة خوّارة  
 مرضعة، وأطال في وصفها إطالة تدل على قصد السخرية منه. ولا ريب أن مثل هذا  
 الهجاء القاسي لملك جبار عات لُقّب بمضرّط الحجارّة، يدل على اندفاع طرفه في  
 فورة شبابه إلى مواقف لم يقدر عواقبها، ولم يقدر مسؤولية الكلمة فيها؛ ذلك أن مثل  
 هذا الهجاء، وإن اتخذ اللون الشخصي الساخر، هو في حقيقته هجاء سياسي،  
 أصاب العرش المنذري في الصميم، وكان له أبعد الأثر في قصف قناة طرفه، وهو في  
 ميعة الصبا وربيعان الشباب.

وروى ابن السكيت لطرفة أبياتاً أخرى في هجاء عمرو بن هند، هي من أشدّ  
 الهجاء وأمره وأوجعه<sup>(٢)</sup>:

أَبَا الْجُرِّيِّ مَتَى تَرْجُو تَدِينُ لَكُمْ      يَا بِنَ الشَّدِيخِ ضِبَاعُ بَيْنَ أَجْبَاخِ<sup>(٣)</sup>  
 أَنْتَ ابْنُ هِنْدٍ فَأَخْبِرْ مَنْ أَبُوكَ إِذَا؟      لَا يُصْلِحُ الْمُلْكَ إِلَّا كُلُّ بَدَاخِ<sup>(٤)</sup>  
 إِنْ قَلْتَ نَصْرًا، فَنَصْرٌ كَانَ شَرًّا فَتَى      قَدَمًا وَأَبْيَضَهُمْ سِرْبَالِ طَبَاخِ<sup>(٥)</sup>

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.  
 (٢) ديوانه بشرح ابن السكيت: ١٥.  
 (٣) الجريّ: مصغر جرو، وهو ابن الكلب. والشديخ: المشدوخ، وهو المكسور. وأراد مكسور الرأس،  
 كناية عن الذل. والأجباخ: أمكنة فيها نخيل.  
 (٤) بدّاخ: باذخ عال شريف.  
 (٥) نصر: هو نصر بن ربيعة، أحد أجداد عمرو بن هند.

ما في المعالي لكم ظلٌ ولا ورقٌ وفي المخازي لكم أسناخٌ أسناخٌ<sup>(١)</sup>  
إن قُسمَ المعجذُ أكدي في سراتكم أو قُسم اللؤمُ فضلتُم بأشياخ<sup>(٢)</sup>

ينصب طرفه على عمرو بن هند في صدر البيت الأول بهذا النداء الموجع: «أبا الجري» معيراً شامخاً، ثم لا يلبث أن يتناوله في عجزه بنداء ثان، فيه من الإهانة والحط من القدر ما فيه: «يا بن الشديخ»، كأنه موسوم بالذل والمهانة وسباً لا فكاك له منه.

ثم يطعن في نسبه، ويتخذ من نسبه لأمه هند مطعناً في شرعية أبيه، فيسأله: من أبوك إذا؟ ثم ينال من قدرته على الملك وإصلاحه إياه.

ويعيره بأحد أجداده، نصر بن ربيعة، بأنه كان شرفي، بخلاً وشحاً، ويعبر عن ذلك بكناية جميلة: كان أبيضهم سربال طبّاخ.

ويجرد آل المنذر من المعالي والمكرمات، ويجعلهم أصلاء في المخازي والعيوب، إن قُسمَ المجد فلا نصيب لسادتهم فيه، وإن قُسمَ اللؤم فلهم منه الحظ الأوفر، ولأشياخهم فضل السبق فيه.

إنه لهجاء موجع، يجرد عمرو بن هند من القيم الاجتماعية التي يعتز بها العربي، وينبع من نفس مهتاجة غضوب، تأججت نيران الحقد والبغض في حناياها، فراح يحصبه بقوارص القول ولواذع الكلم، معتمداً على المفارقات بين المعالي والمخازي، والمجد واللؤم، يضع آل المنذر في الطرف المخزي، وغيرهم في الطرف المشرف.

ويمتاز هذا الهجاء بالصدق الشعوري، نراه في كل بيت، فبريق الشعور بالتشفي والانتقام والكرهية يلتمع في كل لفظ، والنبض العاطفي المتأجج يواكب الأبيات من المطلع حتى الختام.

ويمتاز أيضاً بالفاظه العنيفة المصوّرة، قدّها طرفه من معين انفعاله، فجاءت

(١) أسناخ: جمع سنخ، وهو الأصل.

(٢) أكدي: انقطع. والسراة: السادة.

مصورة خصمه في أحط صوره وأدنى منزلة: أبا الجزي، يا بن الشديخ، من أبوك إذا؟... وكلها ألفاظ يوحى جرسها بدلالاتها على الضعة والذلة والهوان.

وتزداد حميا انفعاله تأججاً حينما يصب جام غضبه على المهجو ويذكر مخازيه، وما تكراره كلمة أسناخ أسناخ إلا صدى لما يمور في صدره من حميا الغضب، قذف به دامغاً آل المنذر بالخزي والعار، وما إكثاره من حرف الخاء أيضاً في هذه الأبيات واتخاذها رويّاً لها إلا ضرب من التعبير اللاشعوري عما تموج به نفسه من انفعالات الألم والغضب من آل المنذر.

وأحسب أننا لسنا بحاجة إلى التأكيد بأن هذه المقطوعة التي عرّت عمرو بن هند من الفضائل، وغمزته بنسبه، وسخرت منه، إن كانت قد بلغت مسامع عمرو ابن هند، فإنها تكفي وحدها لتفسير اضطغانه على طرفه، وكيد له، وتربّصه الدوائر به.

#### ب - هجاء بني المنذر:

هجا طرفه بني المنذر قاطبة، هجاء سياسياً في دوافعه ومراميه، اجتماعياً شخصياً في شكله ومحتواه، فقال: (١)

مِنَ الشَّرِّ وَالتَّبْرِيحِ أَوْلَادُ مَعْشَرٍ كَثِيرٍ وَلَا يُعْطُونَ فِي حَادِثٍ بَكَرًا (٢)  
هُمُ حَرْمَلٌ أَعْيَا عَلَى كُلِّ آكِلٍ مُبِيرًا وَلَوْ أَمْسَى سَوَامُهُمْ ذَنْرًا (٣)  
جَمَادٌ بِهَا البَسْبَاسُ تُرْهَضُ مَعْزُهَا بَنَاتِ اللَّبُونِ وَالسَّلَاقِمَةُ الحُمْرَا (٤)  
فَمَا ذَنْبُنَا فِي أَنْ أَدَاءَتْ خُصَاكُمُ وَأَنْ كُتِمْتُ فِي قَوْمِكُمْ مَعْشَرًا أَدْرَا (٥)

(١) ديوانه بشرح الأعلام: ١١١.

(٢) التبريح: الجهد والمشقة. والبكر: الفتي من الإبل.

(٣) الحرمل: نبت لا يقدر الأكل عليه. ومبيراً: مهلكاً. والسوام: المال الراعي. والدثر: الكثير الذي لا يحصى كثرة.

(٤) الجماد: الأرض لا نبات فيها. والبسباس: نبت أكثر ما يكون في وعر الأرض. ترهض: نصيب وتبري. والمغز: جمع أمعز ومعزاء، وهي الأرض الصلبة فيها حصى. والسلاقمة: العظام من الإبل.

(٥) أداءت: صارت ذاداء. والأذر: جمع أدر (آدر)، وهو المصاب بانتفاخ في الحصى.

إِذَا جَلَسُوا خَيَّلَتْ تَحْتَ ثِيَابِهِمْ خَرَائِقُ تُوفِي بِالضَّغِيبِ لَهَا نَذْرًا (١)  
أَبُ كَرْبٍ أَبْلَغُ لَدَيْكَ رِسَالَةً أبا جَابِرٍ عَنِّي وَلَا تَدْعُنْ عَمْرًا (٢)  
هُمُ سَوْدُوا رَهْوًا تَزَوَّدَ فِي اسْتِهِ مِنَ الْمَاءِ خَالَ الطَّيْرَ وَارِدَةً عَشْرًا (٣)

يصف بني المنذر بأنهم شر محض، ومشقة كبيرة، لأنهم بخلاء، لا يعطون في الشدائد بكرةً صغيراً من الإبل، وهم كالنبت المر المهلك، لا نفع فيهم، بل فيهم الهلاك والدمار للناس؛ فهم أشحاء ممسكون، ولو ملكوا من المال ما لا يحصى.

ويعود فيشبههم بالأرض الصلبة القاسية الجذبة، لا نبات فيها سوى السباس الخشن، تربي بحصاها الغليظة أخفاف بنات اللبون والعظام من الإبل، فليس فيهم إلا الأذى المحض.

ثم يسخر منهم، فيصورهم مرضى، قد انتفخت خصاهم، وكان مرضهم أبعدهم من مخالطة الناس وإكرامهم. ويمضي في رسم الصورة الساخرة المزرية المضحكة حين جلوسهم، فيقول: إذا جلسوا سمعت صوت خصاهم، فحسبت تحت ثيابهم أرناب صغيرة، أوجبت على نفسها نذراً أن تضغب، فهي توفي بنذرهما، وهي صورة سمعية ساخرة رائعة، تتم الصورة البصرية لانتفاخ خصاهم، وتجعلهم مثلةً معيبةً مقرزةً منقّرةً.

ويختم هذا الهجاء المؤلم ببدء مجلجل، يهتف فيه بأبي كرب أن يبلغ رسالته بعض بني المنذر. ونصيخ بسمعنا لسماع فحوى هذه الرسالة، فإذا هي سخرية لاذعة بهم جميعاً؛ فهم سؤدوا عليهم ملكاً أحمر غيباً. ويمثل حماقته في صورة مضحكة موجعة، إذ يشبهه بطير الرهو الأحمر، الذي حسب أن الطير لا ترد الماء إلا بعد عشرة أيام، فتزود بالماء في استه خوف العطش. ولا يخفى ما

(١) الخرائق: أولاد الأرناب. والضغيب: صوت الأرناب.

(٢) يتنادي بعض بني المنذر.

(٣) الرهو: طائر أصفر من الكركي معروف بالغباء. شبه من سؤدوه به.

في هذه الصورة من غمز معيب؛ إذ جعل است المهجو ممتلئاً بالماء، علاوة على ما فيها من دلالة على حمقه وضحالة تفكيره.

وواضح أن طرفه حين أراد أن يصور شحهم وإسآكهم عن المعروف أبرزهم في صورة طبيعية استمدّها من بيئته، فشبهم بالنبت المرّ، والأرض الحزن الجذب، ولما انتقل إلى السخرية منهم أبرزهم في صورة (كاريكاتورية) مضحكة، وفي ذلك آية بيّنة على موهبة طرفه الفائقة في التصوير.

### ج - هجاء عبد عمرو بن بشر:

هجأ طرفه ابن عمه وزوج أخته عبد عمرو بن بشر في قصيدتين، سخر في الأولى منه، لخلاف نشب بينهما، أدى فيما يبدو إلى ظلم عبد عمرو بن بشر طرفه ظلماً فاق الحدّ، وكانت أخت طرفه شكت إليه شيئاً من أمر زوجها عبد عمرو بن بشر، فأحفظته عليه، ويبدو أن عبد عمرو بن بشر لم يكن برّاً بأقاربه وذوي رحمه، على ما كان له من حظوة لدى الملك عمرو بن هند، وقدرة على منفعتهم. وقد تجمعت هذه الأسباب في نفس طرفه، ففاضت بهجائه هجاء شخصياً ساخراً موجعاً: (١)

يا عَجَبًا مِنْ عَبْدِ عَمْرٍو وَبَغِيهِ  
ولا خَيْرَ فِيهِ، غَيْرَ أَنْ لَهُ غِنَى  
يَظَلُّ نِسَاءَ الْحَيِّ يَعْكُفْنَ حَوْلَهُ  
لَهُ شَرِبْتَانِ بِالنَّهَارِ وَأَرْبَعُ  
وَيَشْرَبُ حَتَّى يَغْمُرَ الْمَحْضُ قَلْبَهُ  
لَقَدْ رَامَ ظَلَمِي عَبْدُ عَمْرٍو فَانْعَمَا (٢)  
وَأَنَّ لَهُ كَشْحًا إِذَا قَامَ أَهْضَمَا (٣)  
يَقْلُنْ: عَسِيبٌ مِنْ سَرَارَةٍ مَلْهُمَا (٤)  
مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى أَضَ سُخْدًا مُورَمًا (٥)  
وَإِنْ أُعْطِيَ أَتْرَكَ لِقَلْبِي مَجْثِمًا (٦)

(١) ديوانه بشرح الأعلام: ٩٤.

(٢) أنعم: بالغ.

(٣) الكشع: الخصر. والأهضم: الضامر.

(٤) العسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يُكشَطُ خوصها. وسرارة كل شيء: وسطه وأفضله. وملهم: موضع باليمامة كثير النخل.

(٥) السخد: ماء الرحم الذي يخرج مع الولد. شبه جسده في نعمته وترجرجه به.

(٦) المحض: اللبن الخالص. ومجثم: موضع.

كَمَا السَّلَاحِ فَوْقَ شُعْبَةِ بَانَةِ تَرَى نُفْحًا وَرَدَّ الْأَسْرَةَ أُسْحَمًا<sup>(١)</sup>

يتعجب طرفه من بغى ابن عمه وظلمه الذي جاوز الحدّ، وهو الذي يرى ظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند، فلا يجد شفاء لنفسه الغضبي المتألّمة إلا بالسخرية منه سخرية لاذعة، بجعله مبرأً من صفات الرجولة وخصالها الحميدة، بأسلوب الذم بما يشبه المدح، فبعد أن جرّده من الخير، عاد فأثبت له الغنى، وكأنه يوحي بهذا السؤال: ما جدوى الغنى في رجل لا خير فيه؟.

ثم وصفه بأنه ذو كشح أهضم ضامر. والمعروف أن عبد عمرو كان بادناً سميناً، على سبيل التهكم والسخرية، ثم راح يصور إلف النساء له، واحاطتهن به، قائلات: هو كعسيب ملهم المفضل، وكأنه يريد أن يثبت له أنه قعيد نساء، لا يصلح لمهمات الأمور، وأنه شرب حتى انتفخ، وكثر لحمه، وصار يشبه ماء الرحم الثخين في ترججه وليوته، وبذلك أبرزه ضخماً منتفخاً مترجرج الجسم.

وصوره محباً للبن، يقبل على شربه بشره، فيفقد وعيه عند الشرب، فيشرب شرب الهيم، حتى يغمر اللبن قلبه، فلا يدع له موضعاً يجثم فيه.

ومعنى في سخريته به، فيصفه بالنعومة والليونة، حتى إن السلاح ليبدو على جسمه كأنه معلق فوق غصن بان لئن رخو، وترى في جسمه انتفاخات من الشحم ورهل من اللحم، وقد علت طرائق بطنه حمرة مشوبة بسمرة.

إن أبرز ما يميز هذا الهجاء أنه هجاء ذاتي، يتناول أعضاء في جسم المهجو، فيضخم عيوبها على طريقة الهجاء (الكاريكاتورى) بمفهومه الحديث، وليس كهجاء الجاهليين الذي درجوا فيه على سلب المهجو الفضائل الاجتماعية، وإصاق المثالب فيه، كحطّة النسب، والقعود عن المكارم، والبخل والجبن، وما إلى ذلك من القيم الاجتماعية السائدة في العصر الجاهلي.

وإذا ذكرنا أن هذا النمط من الهجاء لم تكتمل له أسباب النضج الفني إلا في

(١) شعبة بانه: غصن بانه، والبانة شجرة ضعيفة لينة، فشبه جسمه في لينه ورخاوته بها. وورد: أحر. والأسرة: طرائق البطن. والأسحم: الأسود إلى الصفرة.

العصر العباسي ، وعلى يد ابن الرومي بالذات، أدركنا سبق طرفة المبكر في هذا الفن من القول.

أما قصيدته الثانية في هجاء عبد عمرو بن بشر، فقد عكس فيها ما اعتلج في أعماق نفسه من ألم ومرارة وغضب من ابن عمه عبد عمرو، لإفشائه سرَّ هجائه لعمر بن هند. فقد كان هجاء طرفة لعمر بن هند مطوياً، لا يعلم به أحد من رجال القصر المنذري سوى عبد عمرو بن بشر، وما كان ليبلغه هذا الهجاء لو لم يتطوع عبد عمرو بن بشر بإبلاغه إياه، فكان ذلك سبباً في اضطغان عمرو بن هند على طرفة.

لقد حَزَّ في نفس طرفة أن يؤتى من وشاية خرقاء، لم يستطع ابن عمه الثرثار أن يمسك لسانه عليها، ويبدو أن عبد عمرو كان تماماً وأشياء بطبعه، وكثيراً ما كان سعيه في الوشاية والنميمة يوقع بين أبناء القبيلة، ويعرض وشائج الرحم للتقطيع، ولا يبعد أن تكون وشايته بطرفة انتقاماً منه، لما قاله فيه من هجاء.

كل هذا أفعم نفس طرفة بالغيظ والحق والحزن، وجعلها تفيض بهذه الأبيات<sup>(١)</sup>:

أَلَا أُبْلِغَا عَبْدَ الضَّلَالِ رِسَالَةً      وَقَدْ يُبْلِغُ الْأَنْبَاءَ عَنْكَ رَسُولُ<sup>(٢)</sup>  
دَبِيتَ بِسَرِّي بَعْدَ مَا قَدْ عَلِمْتَهُ      وَأَنْتَ بِأَسْرَارِ الْكِرَامِ نَسُولُ<sup>(٣)</sup>  
وَكَيْفَ تَضِلُّ الْقَصْدَ، وَالْحَقُّ وَاضِحٌ      وَلِلْحَقِّ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَبِيلُ؟  
وَفَرَّقَ عَنِ بَيْتِكَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ      وَعَوْفًا وَعَمْرًا مَا تَشِي وَتَقُولُ<sup>(٤)</sup>  
فَأَنْتَ عَلَى الْأُذُنَى شِمَالٌ عَرِيَّةٌ      شَامِيَّةٌ، تَزْوِي الْوُجُوهُ بَلِيلُ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوانه بشرح الأعلام: ٧٧.

(٢) عبد الضلال: يعني عبد عمرو بن بشر، نسبه إلى الضلال، لأنه وشى به إلى عمرو بن هند.

(٣) دببت بسري: مشيت به إلى الملك. والنسول: السريع المشي.

(٤) سعد بن مالك وعوف وعمرو: من بني قيس بن ثعلبة. ومنهم عبد عمرو وطرفة.

(٥) على الأذن: أي على الأقارب. شمال عريّة: يقال للشمال عريّة إذا كانت في غير شمس، كأنها لشدة بردها تمرى من الشمس، فإذا عصفت في مطر فهي بليل. وتزوي الوجوه: تقبضها بشدة بردها.

وَأَنْتَ عَلَى الْأَقْصَى صَباً غَيْرُ قَرَّةٍ  
فَأَصْبَحْتَ فَقْعاً نَابِتاً بِقَرَارَةٍ  
وَأَعْلَمُ عِلْماً لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ  
وَإِنَّ لِسَانَ الْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ  
وَإِنَّ أَمراً لَمْ يَعْفُ يَوْماً فُكَاهَةً  
تَذَابُبٌ مِنْهَا مُرْزَغٌ وَمُسِيلٌ<sup>(١)</sup>  
تَصَوُّحٌ عَنْهُ، وَالذَّلِيلُ ذَلِيلٌ<sup>(٢)</sup>  
إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهَوَ ذَلِيلٌ<sup>(٣)</sup>  
حِصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لِدَلِيلٌ<sup>(٤)</sup>  
لِمَنْ لَمْ يُرِدْ سُوءاً بِهَا لَجْهُولٌ<sup>(٥)</sup>

يستهل طرفه حملته على ابن عمه بهذا التنبيه الجاهر المدوي: ألا أبلغا عبد الضلال رسالة، ولنا أن تتمثل شحنة الغضب التي كانت تمور بها نفس طرفه، حين ألقى بهذه العبارات الحارة المتفجرة كالقذائف، مضيفاً فيها عبد عمرو إلى الضلال. وينكشف لنا فحوى الرسالة ومضمونها، فإذا هو إفشاء السر الذي ألم طرفه كل الإيلام، فجعله يوجه إلى عبد عمرو هذا القول الموجه: «وأنت بأسرار الكرام نسول»، سريع المشي بالفتنة والنميمة.

ثم يسأله مستنكراً: كيف تفضل عن القصد والصواب، والحق واضح بين، وسيله مسلوكة من الصالحين؟ وفي ذلك وصم له بأنه ليس من الصالحين الأمناء الأوفياء.

ويعود فيؤكد أصالة هذه السجية القبيحة فيه، وهي السعي في الوشاية والنميمة، حتى سبب وشبه وسعيه بالنمائم التفرقة بين أبناء العمومة.

ثم يضرب له مثلاً في شدته على الأقارب وسوء معاملته إياهم، فيشبهه بريح

(١) الأقصى: البعيد النسب. صبا غير قره: أي ريح لطيفة لينة غير باردة. وتذابب: تحي من ها هنا مرة ومن ها هنا مرة كالذئب. والمرزغ: القليل من المطر. والمسيل: المطر الغزير الذي تسيل الأرض منه.  
(٢) الفقع: الكمء الأبيض يطلع من الأرض، يضرب مثلاً للدليل. والقاراة: المطمئن من الأرض.  
(٣) المولى: ابن العم.  
(٤) الحصاة: العقل.  
(٥) فكاهاة: مزاحاً.

الشمال الباردة القاسية، عريت من الشمس، وعصفت في مطر، فهي بليل شديدة البرودة، تقبض الوجوه وتوسع الجلود.

وعلى النقيض من ذلك، أنت مع الأقصى من الناس كريح الصبا اللينة اللطيفة الرخية المنعشة، تهب من هنا مرة، ومن هناك أخرى، فتأتي بالخير العميم.

إنهما صورتان طبيعيتان لخلق هذا الرجل محسوستان، يعرضهما على شكل مثلين سائرين، يعرفهما كل عربي، ويدرك مغزاهما البعيد.

ويعقب ذلك بصورة موجعة مؤلمة في صيغة مثل سائر أيضاً في دنيا العرب، إذ يجعله فقماً نابتاً على وجه الأرض. تطؤه الأقدام، وهو مثل يضرب للذليل، فيقال: «أذلُّ منْ فَقَعَ بِقَاعٍ».

ولم يكتف بذلك المثل المهين، بل أتبعه بهذا التعقيب الموجه: «والذليل ذليل»، أي لا جدوى من نصحه وانتشاله من وهدة الذل والعار. وفي ذلك مبالغة في ذمه والخط من شأنه، وأي مبالغة.

ويؤكد القاعدة المحكّمة المتبعة في عرف العرب في صيغة حكمة: أن الرجل يعزّ بابن عمه ويقوى، فإذا ما ذلّ ابن عمه ضعف هو وذلّ، وكأنه يقول له: هذا هو الجزاء العدل لمن يذلّ ابن عمه.

ثم يبين الحكمة السائرة التي عري منها ابن عمه، فيطلقها مثلاً شروداً يدمغ تصرّفه الأخرق الثرثار، إذ كان لسانه بحق دليلاً على عوراته، وكان بالتالي لا عقل له يرده عن القبيح.

ويرميه بعد ذلك بالجهل وضعف التمييز، إذ لم يفهم المزاح الذي قصده طرفه حين ذكره في شعره، فحمله ذلك على الوشاية إلى عمرو بن هند، وإنشاده هجوه فيه.

وقد عرض طرفه هذه الأمثال التي تضمنت معاني عالية، وصوراً بديعة محكمة، وحكمة بليغة، في تعبير واضح موح رائق أخاذ، ينبض بإيقاع شجي لطيف حزين، يشي بما يعتمل في نفس طرفه من ألم ومرارة وحنق على ابن عمه الواشي النمام.

د - هجاء حنانة الحاجب :

ومن تعرض طرفه لهجائهم حنانة الحاجب، إثر خلاف نشب بينهما، فوثب حنانة ليضرب طرفه بسيفه، فانتزع طرفه سيفه وقال<sup>(١)</sup> :

لَقَيْتُ بِأَسْفَلِ ذِي جَاسِمٍ      حَنَانَةَ كَالْجَمَلِ الْأُورِقِ<sup>(٢)</sup>  
فَأَهْوَى بِأَبْيَضِ ذِي عُلَّةٍ      خَشِيبٌ يُرِيدُ بِهِ مَفْرَقِي<sup>(٣)</sup>  
فَسَاوَرْتُهُ فَاسْتَلَبْتُ الْخَشِيبَ      وَأَعْجَلَ نَيْبَهُ رَيْقِي<sup>(٤)</sup>  
فَلَمَّا ابْتَدَرْنَا كَبَا مُحَمَّرٌ      وَكُنْتُ عَلَى الْبُعْدِ ذَا مَضَدِّ<sup>(٥)</sup>  
فَلَوْ كَانَ سَيْفِي لَغَادَرْتُهُ      صَرِيحاً عَلَى الْجَنْبِ وَالْمِرْفَقِ  
وَلَكِنَّهُ سَيْفُكُمْ فَاتَّقَى      مَحَارِمَكُمْ وَالْمَنَايَا تَقِي  
نَعَانِي حَنَانَةً طُوبَالَةً      تَسْفُ يَبِيساً مِنَ الْعِشْرِقِ<sup>(٦)</sup>  
فَنَفْسِكَ فَنَاعَ وَلَا تَتَعْنِي      وَذَاوِ الْكُلُومِ وَلَا تُبْرِقِ

يصور طرفه حنانة في هذه الأبيات جملاً أورق في سوء منظره . ثم يبين ضعفه وتغلبه عليه . ويسخر منه، فيشبهه بالحمار والنعجة .

وينهي المقطوعة بنصيحته إياه أن يتجنب الأبطال وتهديدهم، إذ لا قبل له بهم . وقد أبرزه في صورة قزم حقير، استلب طرفه سيفه، وضربه ضربة لم تمته، ولكنها أخزته، ولو كان سيف طرفه بيده لكانت الضربة قاتلة .

وهو هجاء لاذع ساخر مؤلم، في لفظ قريب واضح رشيق، يبدو فيه طرفه عملاقاً بطلاً غالباً، وحنانة قزماً ضعيفاً مغلوباً .

(١) ديوانه برواية ابن السكيت: ١٥، ١٦ .

(٢) ذو جاسم: موضع . والأورق: الأسود يخالط سواده بياض .

(٣) غلة: عطش . والخشيب هنا: الصقيل .

(٤) ساورته: غالبته . نيبه: ما يثوب منه . والرئق: الأول، أي أعجلته أن يضربني ثانية .

(٥) كبا: سقط . والمحمر: الذي يشبه الحمار .

(٦) نعاني: عابني وشهرني . وطوبالة: نعجة . والعشرق: نبات . وطوبالة: منصوبة على الترحم أو الذم .

وعنى بها حنانة .

## هـ - هجاء قبيلة تغلب:

أرسل عمرو بن هند قائداً من قواده يقال له الغلاق بن شهاب التميمي، ليصلح بين بكر وتغلب، فاصطلحوا زُميناً على دَخْن، وكأنهم يرصد بعضهم بعضاً. وتحاجزوا والقلوب بعدُ فيها ما فيها من العداوة، فأغارت تغلب على بكر، فقال طرفة في ذلك قصيدة، مطلعها: (١)

أَشْجَاكَ الرَّبْعُ أَمْ قَدُمُهُ      أَمْ رَمَادُ دَارِسٍ حُمْمُهُ (٢)

استهلها بالوقوف على الأطلال في أبيات سبعة، ثم انتقل إلى هجاء تغلب، فذكرهم بنفير بكر لقاتلهم في معركة، قاتل فيها أغنياء بكر وفقراءهم سواء: (٣)

تَذْكُرُونَ. إِذْ نُقَاتِلُكُمْ      لَا يَضُرُّ مُعْدِمًا عَدْمُهُ (٤)

ثم جعلهم كشجر النخل جامدين، ينتظرون من يجز ثمره، وهي صورة مزرية بهم، إذ وقفوا ينتظرون منيتهم، وقد أبنعت منهم الرؤوس، وحن قطافها: (٥)

أَنْتُمْ نَخْلٌ نُطِيفُ بِهِ      فَإِذَا مَا جُزَّ نَضَطْرْمُهُ (٦)

ووصفهم بعد ذلك بسوء الحال والضعف والهوان، فعذارهم مشمرة تقطع رديء النخل في امتهان وانكسار. أما عجائزهم فقد خرجن في ذل أيضاً مع العذارى يستدفئن بنيران ذلك النخل: (٧)

وَعَذَارِيكُمْ مُقْلَصَةٌ      فِي دُعَاعِ النَّخْلِ تَجْتَرِمُهُ (٨)

(١) ديوانه: ٦٨.

(٢) الربيع: محل القوم زمن الربيع. والدارس: الذي ذهب أثره. وحممه: فحمه.

(٣) ديوانه: ٧٠.

(٤) لا يضرُّ معدماً عدمه: أي يقاتلكم الفقير المعدم منا ليغنم، فعدمه غير ضار له.

(٥) ديوانه: ٧١.

(٦) جزَّ التمر: بلغ وحن وقت قطافه.

(٧) ديوانه: ٧١.

(٨) مقلصة: مشمرة. ودعاع النخل: رديئه. وتجرمه. تصرمه وتقطعه.

وَعَجَائِزُ مَعَا لَكُمْ تَضَطَّلِي نِيرَانَهُ خَدْمُهُ

وجبههم بضعفهم وهوانهم وذلتهم، إذ جعل خير مراعيهم يابس الطحاء الرديء أورطبه، وهو مرعى المستضعفين الأذلاء المضيق عليهم في الأرض<sup>(١)</sup>:

خَيْرُ مَا تَرَعُونَ مِنْ شَجَرٍ يَابِسُ الطَّخْمَاءِ أَوْ سَحْمُهُ<sup>(٢)</sup>

ثم انتقل إلى ذكر مسعى الصلح بين بكر وتغلب الذي قام به الغلاق التميمي، ويُنْبِي على خداع وكذب ودخن في القلوب، فكانه ضرب بالقداح، فأق قدحه بالغواية والشر، وعادت الحرب بين الحيين: <sup>(٣)</sup>

فَسَمَى الْغَلَّاقُ بَيْنَهُمْ سَعَى خَبِّ كَاذِبِ شِيمُهُ<sup>(٤)</sup>

أَخَذَ الْأَزْلَامَ مُقْتَسِمًا فَأَتَى أَغْوَاهُمَا زُلْمُهُ<sup>(٥)</sup>

وينصب بعد ذلك على بني تغلب مهدداً متوعداً، إن هم أعادوا الحرب أعادت لهم بكر الهجاء والحرب معاً. أما الهجاء فبقصائد سائرة شرود بين الناس، وأما الحرب فبجيش لجب عظيم، يلتهم كل شيء، ذي جلبة وضوضاء، كثير عدد الأبطال الكمأة الأشاوس، يجتاحون القاع، فيحيلون أرضه المطمئنة مراغاً تعج فيه الهبوات السود: <sup>(٦)</sup>

إِنْ تُعِيدُوهَا نُعِيدُ لَكُمْ مِنْ هِجَاءٍ سَائِرٍ كَلِمُهُ<sup>(٧)</sup>

وَقِتَالٍ لَا يُغْنِيكُمْ فِي جَمِيعِ جَحْفَلٍ لِهْمُهُ<sup>(٨)</sup>

(١) ديوانه: ٧٢.

(٢) الطحاء: شجر ليس بالطيب. وسحمه: رطبه.

(٣) ديوانه: ٧٢.

(٤) الغلاق: رجل من بني تميم بعثه العاهل المنذري ليصلح بين بكر وتغلب. والخب: الخداع.

(٥) الأزلام: جمع زلم، وهو القدح. وأغواهما: أي أغوى الأمرين.

(٦) ديوانه: ٧٤.

(٧) كلمه: أي قصائده، والعرب تقول للقصيدة كلمة.

(٨) لا يغنيكم: أي لا ينقطع عنكم. وجميع جحفل: جيش مجتمع عظيم. ولهمه: أي يلهم كل شيء ويتلعه.

رِزَّةٌ قَدَّمَ وَهَبَ وَهَلَا فِي زُهَاءِ جَمَّةٍ بُهْمَةٌ (١)  
يَتْرُكُونَ الْقَاعَ تَحْتَهُمْ كَمَرَاغٍ سَاطِعٍ قَتْمَةٌ (٢)

ومضي في تصوير أبطال بكر، وحسن بلائهم في الحرب في إطار من التهديد الرعيب لبني تغلب، بإبراز شجاعة الفتى البكري، إذ لا تراه إلا ممسكاً بخناق بطل من بني تغلب يجهز عليه: (٣).

لَا تَرَى إِلَّا أَخَا رَجُلٍ آخِذًا قِرْنًا فَمُلْتَزِمَةٌ (٤)

لقد أصاب طرفة كبد الرمية في هذا البيت، فأق بأبلغ عبارة، وأجل صورة، إذ جلت كثرة قومه، وإقدامهم، وتوزعهم في الحرب توزع الأجال على أعدائهم. واستغراقهم أعداءهم، بحيث لم تقع العين في ساحة المعركة إلا على بكري ملتزم تغلياً بجالده، وبحيث لم يفلت في هذا اليوم تغلي من قبضة بكري.

وإنه ليوم عصيب، طار فيه صواب الجبان، وانخلع فؤاده، ولم يصبر فيه إلا الشجاع الثيب القلب والعقل:

فَالْهَبِيتُ لَا فُؤَادَ لَهُ وَالثَّيْبُ ثَبِتُهُ فَهْمَةٌ (٥)

يخلص لنا مما تقدم أن الهجاء عند طرفة اتخذ ألواناً متعددة؛ فهو هجاء شخصي لعبد عمرو بن بشر، وهو هجاء اجتماعي لبني المنذر، وهو هجاء سياسي لعمر بن هند، وهو هجاء قبلي لقبيلة تغلب، هو أقرب ما يكون إلى الهجاء السياسي.

بيد أن طرفة مزج معظم هجائه باللون الشخصي الساخر كما رأينا في هجائه

(١) الرز: الصوت. وقدم: أمر للفرس بالتقدم. وهب: زجر بمعنى كَفَّ. وهلا: زجر وإبعاد. وزهاء:

كناية عن الكثرة والبهم: جمع بَهْمَةٌ وهو الشجاع الذي لا يدرى كيف يؤق.

(٢) المرأغ: موضع متمك الخيل.

(٣) ديوانه: ٧٥.

(٤) القِرْن: الصاحب في القتال.

(٥) الهبيت: المبهوت، يقال رجل هبيت ومبهوت ومبهوت بمعنى واحد، وهو الجبان المخلوع الفؤاد.

والثيب: الثابت القلب. وثبته فهمه: أي فهمه يثبت عقله وقلبه.

لعمرو بن هند وبني المنذر وعبد عمرو بن بشر.

وهو هجاء تقليدي حين يجرد المهجوم من القيم الاجتماعية السائدة في عصره، ويجعل المهجوعارياً عن كل فضيلة ومنقبة صالحة، كما رأينا في هجائه بني المنذر.

وهو هجاء مبتكر جديد حين يمعن في السخرية من مهجوه، ويرسم له الصور (الكاريكاتورية) المضحكة، كما رأينا في هجوه عمرو بن بشر وبني المنذر.

وهو في كل صوره وألوانه هجاء نفاذ مؤلم قاتل مُصمٍ، نفّس فيه طرفه عن صدره المكروب، ونفسه الملوّعة من مكر الخصوم ومواقفهم، ومن ثمّ جاء حار اللهجة، متقد الشعور، فخم الإيقاع، جزل العبارة في غير إغراب، واضح اللفظ في غير إسفاف.

ولقد خلت معظم قصائده في الهجاء من المقدمات الطللية أو الغزلية، وخلصت للهجاء، وفي ذلك دليل على حدّة انفعال الشاعر بالمعاني التي دارت في خلدّه، فقذف بها مهجويّه، وبالصور التي ارتسمت في مخيلته لهم، فسارع إلى رسمها غير متلبث ولا مستأن، ولا ملتفت إلى تقديم أو تمهيد.

ولقد برزت في هذا الهجاء موهبة طرفة الرائعة في التصوير؛ إذ جاءت صوره دقيقة مثيرة شائقة محكمة، فدلت على تمكنه من هذا الفنّ، وتفوّقه فيه.

## المديح

إذا كان المديح في ديوان الشاعر العربي هو الصفحة المقابلة لصفحة الهجاء، فإن صفحة المديح في ديوان طرفة بن العبد تبدو باهتة هزيلة بجانب صفحة الهجاء. ذلك أن القاريء ديوان طرفة لا يعثر إلا على أبيات معدودات في المديح، لا تثبت لصاحبها فيه باعاً طويلاً، ولا قدماً راسخة.

وهذا هو السبب الذي حدا بالرافعي إلى القول: «... وقد وصف طرفة النوق وصفاً شعرياً، ولكنه قصر في صفة الخيل، وجاءت في كلمه متفرقات من الحكم والأمثال، وهي أبداع ما في شعره، ثم هو قد ضرب في الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثاقب، ولكنه قليل المديح نازل الطبقة فيه.»<sup>(١)</sup>

على أن الباحث المتأمل ديوان طرفة، وما ورد في المصادر القديمة من نقول حول مكانة طرفة الشعرية وفنون الشعر التي طرقها، يدرك أن كثيراً من شعره قد ضاع، ولم يصل إلينا مما صحَّ له إلا القليل. ومن ثم لا يجد الباحث مندوحة من طرح هذا السؤال:

أكان لطرفة شعر كثير في المديح، ضاع فيما ضاع من شعره، ولم يصلنا منه إلا القليل، أم أنه لم يكن له شعر يذكر في المديح، لأنه لم يكن مبرزاً في هذا الفن، وأنه كان قصير النفس فيه؟

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥.

ثبت النقول أنه كان لطرفة مديح جيد، رفع به من قدر مَنْ صاغ فيه قلائد مدحه، كما وضع بهجائه من قدر مَنْ سدّد سهام هجائه إليه.

ففي البيان والتبيين: أن الذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه، ومدحوا فرفعوا من قدر مَنْ مدحوا، وهجاهم قوم فردّوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعض مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم، وهم إسلاميون: جرير، والفرزدق، والأخطل. وفي الجاهلية: زهير، وطرفة، والأعشى، والنابغة، هذا قول أبي عبيدة<sup>(١)</sup>.

فلطرفة إذا شعر في المديح جيد، وطرفة واحد من أولئك الشعراء الذين رفعوا من قدر مَنْ مدحوه، فأين ذلك المديح؟ لا شك أنه قد ضاع.

وفي الأغاني ما يشير إلى أن طرفة كان يصفي مدائح الملك عمرو بن هند. يقول أبو الفرج: «أخبرني ابن دريد، قال: أخبرني أبو حاتم عن أبي عبيدة، قال: جاور أبو دؤاد الإيادي كعب من مامة الإيادي، فكان إذا هلك له بغير أو شاة أخلفها، وفيه يقول طرفة يمدح عمرو بن هند:

جارٌ كجارِ الحُدَاقِيّ الذي انْتَصَفَا<sup>(٢)</sup>

وأورد التبريزي في شرحه للحماسة هذا الخبر في سياق حديثه عن (جار أبي دؤاد) الذي تضربه العرب مثلاً في كرم الجوار، فقال: «جار أبي دؤاد الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان أبو دؤاد الإيادي جاوره، فكان كلما تلف من مال أبي دؤاد شيء أخلفه عليه الحارث، وما تزايد من ماله فله، فضربته العرب مثلاً في كرم الجوار، قال طرفة:

إني كَفَاني مِنْ هَمِّ هَمَمْتُ بِهِ جَارُ كَجَارِ الحُدَاقِيّ الذي انْتَصَفَا  
أبو دؤاد من حُدَاقَة<sup>(٣)</sup>.

(١) البيان والتبيين ٤/ ٨٣.

(٢) الأغاني ١٦/ ٣٧٣ (دار المعارف).

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٣/ ٣٩.

وهذا الخبر صريح الدلالة على أن طرفة كان يصوغ المديح في عمرو بن هند في الفترة القصيرة التي صفت فيها العلاقات بينها. ويبدو أن عمرو بن هند أكرم مثواه في تلك الفترة، ورعى جواره وكفاه همه، حتى إن طرفة تمثل بهذا البيت الذي يشيد فيه بجاره عمرو بن هند، فشبهه بجار أبي ذؤاد الذي ضربته العرب مثلاً في كرم الجوار.

فأين ذلك المديح الذي صاغه طرفة في جوار عمرو بن هند الذي المَع إليه في هذا البيت؟ وإذا كان هذا المديح قليلاً، لأن فترة الوثام والصفاء بين طرفة والعاقل المنذري لم تطل، فأين ذلك القليل؟.

لا ريب أنه ضاع، ولم يبق شاهداً عليه إلا هذا البيت، وأبيات أخرى قليلة. على أن هذه الأخبار التي تثبت لطرفة شعراً في المديح، لا تغير من الحقيقة المستنبطة من دراسة شخصيته والأحوال التي أحاطت به في نشأته وشبابه، وهي أنه لم يكن مكثراً في المديح.

ذلك أن شخصية طرفة المعتدّة المستعلية الفخور، لا تسلس قيادها في العادة لهذا الضرب من القول إلا في حالات قليلة، تُشحن فيها النفس بعاطفة الوفاء والشكر والعرفان لمن أسدى إليها يداً لا تُجحد، أو غمر قومها بنعمة لا تُنكر.

زد على ذلك أن طبيعة الحياة التي تقلب فيها طرفة لم تدفعه إلى الوقوف بباب المدوحين، اللهم إلا ما كان من وقوفه فترة قصيرة بباب عمرو بن هند، أدت إلى هجائه، وكانت سبباً في قصف قناته الرطبية في فجر الشباب.

على أن السبب الأساسي في إقلال طرفة من المديح، في رأيي، هو أنه كان شاعر قبيلة امتصّت كل ينابيع المديح في نفسه، وحولتها إلى مسالك في الفخر بقومه ويشمائلهم ومآثرهم وأيامهم، فإذا هو يشدو بتلك الشمائل والخلائق والأيام ملء قلبه وحنياه، ويهبها عصارة عبقريته وكنوز فنه.

وما وصلنا من شعره الحي في المديح، إنما استمدّ حرارته وحيويته من صلته بقومه، ومن شعوره العميق بقيمة الإحسان إليهم، وتقديره البالغ لصاحب اليد المسداة.

ومن هذا الشعر مدحه لقتادة بن سلمة الحنفي الذي أغاث قومه في سنة  
أصابتهم؛ إذ جاءوه فبذل لهم من الرغد الجم والعطاء الجزل ما أطلق لسان طرفه في  
مديحه بحرارة وصدق وحسن تنويه<sup>(١)</sup>:

أَبْلَغُ قَتَادَةَ غَيْرِ سَائِلِهِ      مِنْهُ الثَّوَابَ وَعَاجِلَ الشُّكْمِ<sup>(٢)</sup>  
إِنِّي حَمِدْتُكَ لِلْعَشِيرَةِ إِذْ      جَاءَتْ إِلَيْكَ مُرَقَّةَ الْعَظْمِ<sup>(٣)</sup>  
أَلْقَوْا إِلَيْكَ بُكْلَ أَرْمَلَةٍ      شَعْنَاءَ تَحْمِلُ مُنْقَعِ الْبُرْمِ<sup>(٤)</sup>  
فَفَتَحَتْ بَابَكَ لِلْمَكَارِمِ حَيْدِ      مَنْ تَوَاصَّتِ الْأَبْوَابُ بِالْأَزْمِ<sup>(٥)</sup>  
فَسَقَى بِلَادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا      صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةُ تَهْمِي<sup>(٦)</sup>

إنه مديح صادق نابع من القلب، تشيع فيه أنداء المودة، ويفوح منه عبير  
الوفاء والعرفان، لم يبتغ قائله من تنزيده غنيمة مرجوة، ولم يرم إلى كسب مأمول.  
وإنما يوفي الممدوح حقه عما سبق له من بسط يده كريمة سخاء على عشيرته التي جاءت  
ذات يوم مجهدة رقيقة العظم، فلاقته في رحابه الرغد والغوث والعون.

وقد جلتى طرفه كرم قتادة وسمو خلقه وسعة فضله على الناس، إذ شخص  
بؤس عشيرته وفاقته، المائل في هيئة الأرامل الشعث البائسات المهزولات اللواتي  
جئن في ركب العشيرة، فإذا قتادة يفتح لهم بابه، ويغمرهم بالمكارم، في حين  
تواصى الناس بإغلاق الأبواب في وجوه العفاة والمحرومين.

إنها لمقارنة بارعة بين ما فعله هذا السيد الكريم الجواد، وما فعله غيره في أيام

(١) ديوانه: ٩٢.

(٢) الشكْم: الجزاء على الشيء.

(٣) مرقة العظم: أي جاءت مجهودة رقيقة العظم.

(٤) الشعنَاء: المتغيرة بالهزال وسوء الحال. والبُرْم: جمع بُرْمَة، وهي قدر من حجارة، وأراد بها ما هنا براماً  
صغاراً، وكانت المرأة تحملها ترتفق بها، وتنقع فيها أنكاث الأخبية. وتبَلِّها. وإذا نزلوا حَكَنَ ذلك  
الغزل واتخذن الأخبية.

(٥) الأزْم: الإطباق والإغلاق.

(٦) صوب المطر: وقعه. والديمة: المطر الدائم.

للشدة والكرب العظيم، زاد في روعتها وجمالها هذا المجاز البديع، إذ أسند فيه التواصي للأبواب، وأراد أصحابها الأشحاء المسكين.

ومن هنا ينطلق لسان طرفة بهذا الدعاء الحار اللهج بالصدق لقتادة بالسقياء وإانه لدعاء قرّظه علماء البلاغة العربية ونقادها الذواقون جمالها، وأثنوا عليه، إذ رأوه من أحسن ما وُصِف به المطر الخير اللين المنح السكوب النافع الذي لا يخرب البيوت، ولا يفسد المزارع، ولا يزيد على حاجتها وريتها.

وإني لأعتقد أن هذه الأبيات على قلتها تمثل أسلوب طرفة في مديحه، لأنها من شعره الصادق الصادر عن قلب ينبض بالحب والإعجاب والتقدير لرجل محسن كريم.

ومن ثم جاء أسلوبه فيها رائعاً رصيناً، قوامه اللفظ الكريم الحرّ الجزل المأنوس الواضح البين، والتعبير الرصين المحكم، يموج بالماء والرونق، ويزهو بشرف المعنى وبديع النظم.

وفيا عدا هذه الأبيات الجميلة، لا نعثر لطرفة على مديح إلا في أبيات، رواها ابن السكيت، إن صحت له، فهي مما قاله فيه في الفترة القصيرة التي صفت فيها العلاقات بين طرفة وعمرو بن هند، وهذه الأبيات هي<sup>(١)</sup>:

|                                     |  |
|-------------------------------------|--|
| لَوْ كَانَ فِي أَمْلَاكِنَا أَحَدٌ  | يَعْصِرُ فِينَا مِثْلَ مَا تَعْصِرُ <sup>(٢)</sup> |
| لَجَبْتُ صَحْنِي الْعِرَاقِ عَلَى   | حَرْفِ أَمُونٍ دَفَّهَا أُرُورُ <sup>(٣)</sup>     |
| مَتَّعْنِي يَوْمَ الرَّحِيلِ بِهَا  | فَرَعٌ تَنْقَاهُ الْقِدَاحُ يَسْرُ <sup>(٤)</sup>  |
| تَنْزِلُ أَفْنَانَ الصَّرِيمِ مَعاً | كَأَنَّهَا تَرُوحُ أَوْ تَبْكُرُ <sup>(٥)</sup>    |

(١) ديوانه برواية ابن السكيت: ١٠.

(٢) يعصر: يعطي ويمنج.

(٣) الحرف: الناقة الضامرة. والأمون: الموثقة الخلق. ودفها: جنبها. وأرور: مائل من نشاطها.

(٤) فرع كل شيء: أعلاه، ومن القوم شريفهم. والفرع: قذح من أعلى الغصن، وهذا مثل ضربه للمدوح. وتنفاه: تخيره. ويسر: سهل مؤسير.

(٥) أفنان: أنواع. الصريم: القطعة من الرمل. تروح: تسير وقت الرواح، وهو العشي.

ذِ غَلِيْبَةٍ فِي رِجْلِهَا رَوْحٌ  
كَأَنَّهَا مِنْ وَخْشٍ إِنْبِطَةِ  
بَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةً، لَشِقُّ  
أَلْجَامَا فِي دِفءِ غَرْقَدَةٍ  
بَاكِرَهَا غَدَاؤًا بِأَكْلِبِهِ  
فَأَيَّقَنْتَ إِذْ ضَاعَ مَطْلِبُهَا  
لَا جَابَةَ مِنَ الْجِدَاعِ وَلَا  
تَقْدُ أَجْوَازَ الصَّرِيمِ كَمَا  
أَعْطَاكَ أَهْلَ الطُّودِ عَن غُرُضٍ  
وَالْجُونَ مِنْ رَبِيعَةَ الْقَشْعِمِ  
مَنْ يَعْصِ مِنْهُمْ أَمْرَ كَفْكَ لَا

مُذْبِرَةٌ، وَفِي الْيَدَيْنِ عَسْرٌ<sup>(١)</sup>  
خَنَسَاءُ، يَخْنُو خَلْفَهَا جُوْزُرًا<sup>(٢)</sup>  
أَوَّلَهَا، شَنَانَةٌ وَمَطْرٌ<sup>(٣)</sup>  
يَحْوِطُهَا مِنَ الْبُرُوقِ سَدِيرٌ<sup>(٤)</sup>  
مَشْجَعَةُ الْجَرْمِيِّ أَوْ نَأْتِرٌ<sup>(٥)</sup>  
أَنْ لَيْسَ يَخْلُومِ الْكِلَابِ مَكْرٌ<sup>(٦)</sup>  
يَخْلُجُهَا مِنَ الشَّبَابِ كِبَرٌ<sup>(٧)</sup>  
قَدْ بِإِزْمِيلِ الْمُعِينِ حَوْرٌ<sup>(٨)</sup>  
سَيْفَ صَحَارٍ كُلِّهَا وَهَجْرٌ<sup>(٩)</sup>  
تَكْتَفُهُمْ عَنِ الْيَمِينِ مُضْرٌ<sup>(١٠)</sup>  
يَخْتَنُهَا فِي مَا عِزِّ أَوْفَرٌ<sup>(١١)</sup>

(١) الذعبلية: النعامة. والرَّوْحُ: السَّعة. والعسر: الصعوبة والشدة.

(٢) إنبطة: موضع معروف. وخنساء: متأخرة الأنف. والجوْزُر: ولد البقرة الوحشية.

(٣) لثق أولها: أي ندي. وشنانة: تصب الماء.

(٤) الغرقدة: واحدة الغرقد، وهو شجر عظيم. والسدير المتحير، يعبرون بتحير السحاب عن كثرة مطره.

(٥) مشجعة الجرمي ونأتر: قانصان.

(٦) أي أيقنت هذه البقرة أنها إذا لم تصدها الكلاب أول مرة، فسوف تصطادها إذا كرت عليها.

(٧) الجابة: الظبية وقت طلوع قرنها. والجذاع: جمع جذعة، وهي الحدثة قبل أن تكون ثنية، ويخْلِجها: ينتزعها.

(٨) تقد: تقطع وتشق. أجواز: أوساط. والصريم: قطعة الرمل. والإزميل: شفرة الحداء. والمعين: الأجير وخور: لين، صفة لمحدوف، أي جلد خور.

(٩) الطود: الجبل. وعن غرض: عن غير قصد. وصحار: قصبه عمان. والسيف هنا: ساحل عمان.

وهجر: اسم لجميع أرض البحرين.

(١٠) الجون: بطن من ربيعة بن نزار. والقشعِم: أراد القشعِم، فوقف وألقى حركة الميم على العين كما

قالوا: «البيكر» (اللسان- قشعِم، والمحكم ٢/ ٢٨٤)، ومعناه: الكبير المسن، وهو لقب لربيعة بن نزار.

(١١) لا يختنها: لا يجميها. وماعز: صلب شديد. وأوفر: أي السقاء الأوفر، وهو الذي لم ينقص من أذنيه

كَأَنَّ بَيْضَ الدَّارِعِينَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ قَبْلَ الصُّبْحِ جُدْرًا<sup>(١)</sup>

يستهل هذه الأبيات بالمديح، فيجعل من عمرو بن هند الكريم الفذ الذي لا ند له بين الملوك في عطائه وهباته. ولو كان فيهم مثله لاجتأب طرفه صحنى العراق على ناقته الضامرة القوية، يمتاح بحور العطاء والجود.

وهو إلى كرمه من علية القوم وأشرفهم، أمتعه أن يشد الرحال إليه على ناقته. ومن ثم انطلق في وصف ناقته وقوتها وسرعتها، فشبها بنعامه ولت الأدبار، أو بقرة وحشية خنساء، لها ولد صغير، أمضيا ليلة مطيرة في ظل شجرة تقيها المطر المنهمر. وفي الصباح باكر البقرة وابنها صياد مشهور يسعى بأكلبه الضارية، فانطلقت فزعة هاربة تشق أجواز الرمال.

ثم عاد للمديح، فأشاد بسيطرة عمرو بن هند وغلبته على القبائل العربية، فأهل عمان والبحرين دانوا له، وكذلك بنو ربيعة، وعن يمينهم مضر. ونوه بقوته ورهبته، إذ لا يعصم خصومه من ضرباته عاصم.

لقد أبرز طرفه عمرو بن هند في هذه الأبيات قويا مهيمنا، مطاع الكلمة، مرهوب الجانب، ولكنه لم يبرزه ذلك القوي المحبوب الذي تجتذ بنا قوته، فإذا نحن تعاطف معه، ونحب القوة التي تجسدت فيه.

ولعل السبب في ذلك أن القيم الشعورية في الأبيات ضئيلة شحيحة، والنُبض العاطفي وإه ضعيف؛ ذلك أن الشاعر اعتصر أبياته اعتصاراً، ولم تبتدرها نفسه ابتداراً وشتان ما بين شعر اعتصره الذهن، وشعر فاضت به النفس.

وهذا الجفاف العاطفي يبعد القصيدة عن روح طرفه، ويحملني على الشك في أنها له، ومما يزيدني شكاً فيها أنها لا تشبه قصائده في منحائها وأسلوبها.

شيء. وهذا مثل يقوله الرجل للرجل، يتوعده بذلك.

(١) البيض: الحديد. والدارعين: الذين عليهم دروع الحديد. وجُدْر: زيادة في البدن كالغدة، تتحرك إذا حُرِّكت.

## الحكمة

تأثرت الحكمة في قصائد طرفه، ولم تستقل بقصيدة أو مقطعة، شأنها في ذلك شأن الحكمة في القصيدة العربية القديمة، التي جعلها الشاعر العربي وعاء لأغراض شتى، منها الحكمة.

فالقارئ ديوان طرفه يقع على الحكمة هنا وهناك، يطلقها تارة مجردة لا يريد منها إلا المعنى الذي تحمله، ويربطها تارة بسياق الموضوع الذي يعالجه، ويصبغها بصبغه الخاص، فيأتي بها تعليقاً على الفكرة التي يبحثها، وتعقيباً على الرأي الذي يدعو إليه.

والحكمة في شعر طرفه بنت تفكيره ومشاهداته وتأملاته في أحوال الناس والحياة، يضمنها ما استقاه من مشاهداته، وما حصله من خبراته في الحياة والأحياء، وما اعتنقه من رأي، وما ارتضاه من مذهب في الحياة.

فالموت ورد الناس منذ الأزل، وكل نفس لا بد لها من الورد المورود، وإن لم تمت في يومها فستموت في غدها، وما أقرب اليوم من الغد<sup>(١)</sup>:

أرى الموت أعداداً تُفوسٍ ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غدي<sup>(٢)</sup>

(١) معلقته: ١٠١.

(٢) الأعداد: جمع عدّ، وهو الماء الكثير المورود.

إنها صورة رائعة تمثل ورود المواكب البشرية على هذا الورد المورود الدائم الغزير الذي لا ينفد ماؤه على كثرة الواردين من عهد آدم .

والأيام ستسفر لك عما كانت تحبته، وتبدي لك ما كنت تجهله . ويأتيك بالأخبار من لم تكلفه بها، ولم تزوده في البحث عنها، ولم تضرب له موعداً لذلك : (١)

سَتُبَدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ  
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ بِنَاتًا، وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ (٢)

وهي معان بديعة، أحسن طرفة في تكثيفها وسبكها في هذه الأبيات الثلاثة . وقد أعجب بها جرير أيما إعجاب، ولما سئل : من أشعر الناس؟ قال : الذي يقول :

مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدِ

وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ (٣)

ومن حكمته التي ساقها تعقياً على توعدده أعمامه الذين أكلوا حقه وحق أمه بالباطل قوله : (٤)

قَدْ يُورِدُ الظُّلْمُ الثُّبِينُ آجِنًا مِلْحًا يُخَالِطُ بِالذُّعَافِ وَيُقَشِّبُ (٥)  
وَقِرَافٌ مَنْ لَا يَسْتَفِيقُ دَعَارَةَ يُعْدي كَمَا يُعْدي الصَّحِيحُ الْأَجْرَبُ (٦)  
وَالِإِثْمُ دَاءٌ لَيْسَ يُرْجَى بُرْؤُهُ وَالْبِرُّ بُرءٌ لَيْسَ فِيهِ مَعْطَبٌ (٧)  
وَالصَّدْقُ يَأْلَفُ اللَّيْبُ الْمُرْتَجَى وَالْكَذْبُ يَأْلَفُ الدَّنِي الْأَخْيَبُ

فالظلم يجرّ إلى أوحم العواقب، ويؤدي إلى مرّ النتائج، ويمثل تلك النتائج

(١) معلقته : ١٠٢، ١٠٣ .

(٢) البتات : الزاد . والبيع هنا بمعنى الشراء .

(٣) ديوانه : ٤٥ .

(٤) ديوانه : ١٠٣ .

(٥) تقدّم البيت وشرحه ص ٤٣ .

(٦) القراف : المدانة والملابسة . والذعارة : كالدعارة، وهي الخبث والفساد .

(٧) المعطب : الهلاك .

المرة التي يدفع إليها الظلم بالماء الأسن المتغير الملح، يخالطه السم الزعاف .  
ومخالطة الخبيث السادر في غوايته وغيه، يعدي الإنسان الفاضل السوي، كما  
يعدي الأجر من الإبل الصحيح .

والإثم داء لا براء منه، والبرّ شفاء لا معطب فيه، والصدق يألفه اللبيب  
المرجى لكل خير، والكذب يألفه الدنيء الأخيب السفیه .

وقد لَوَّح طرفه بهذه الأبيات من الحكمة لأعمامه، حاثاً إياهم على التخلُّق  
بقيمتها الخلقية الإنسانية، فذلك أليق بهم وأجدر .

ثم لمس وجدانهم لمسة عميقة بأن الحياة مؤقتة زائلة، وأنه سيهلكهم ما أهلك  
عاداً والقرون الأولى، إذ شعبتهم المنية جميعاً، وفرّقت جمعهم تفريقاً لا رجعة  
بعده<sup>(١)</sup> .

وَلَقَدْ بَدَأَ لِي أَنَّهُ سَيُفْوِئُنِي مَا غَالَ عَاداً وَالْقُرُونَ فَاشْعَبُوا<sup>(٢)</sup>

ونجد مثل هذا الضرب من الحكمة الذي ساقه طرفه تعقياً على الموضوع  
الذي يخوض فيه، في قصيدته التي هجا فيها ابن عمه عبد عمرو بن بشر، فبعد أن  
كآل له الصفعات الشداد، راح يردّد على مسامعه القاعدة المحكّمة المتبعة في عرف  
العرب، وهي أن الرجل يعزّ بآبن عمه ويقوى به، فإذا ما ذل ابن عمه ضعف هو  
وذل<sup>(٣)</sup> .

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهَوَّ ذَلِيلٌ<sup>(٤)</sup>

ثم يبين الحكمة السائرة التي تصدق على ابن عمه، فيطلقها مثلاً شروداً يدمغ  
تصرّف ابن عمه الأخرق الثرثار؛ إذ كان لسانه بحق دليلاً على عوراته، وكان بالتالي  
لا عقل له يرده عن قول القبيح<sup>(٥)</sup> .

(١) ديوانه: ١٠٣ .

(٢) يغولني: يهلكني . وأشعبوا: ماتوا .

(٣) ديوانه: ٨٠ .

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٥٢ .

(٥) ديوانه: ٨٠ .

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لمْ تُكنْ لَهُ حِصَاةٌ على عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلٌ<sup>(١)</sup>

يتضح لنا مما تقدم من نماذج الحكمة في شعر طرفة أنها من بديع شعره، لما تضمنت من أفكار رزينة، توهم في كثير من الأحيان أن قائلها شيخ مجرب، عركته الأيام، وحلب أشطر الدهر.

إنها حكمة ناضجة من شاب حدث، تدل على عقل حصيف، وفكر نير، أكبر من عمره الزمني. وجمال هذه الحكمة بصدقها الشعوري، ذلك أن طرفة لم يطلقها فكرة ذهنية باردة باهتة. بل غمسها بحوضه النفسي المتأجج بحمياً الانفعال، وبخاصة حينما كان يقدر الحكمة تعقيباً على الفكرة التي يعالجها وتعليقاً، فتأتي متوهجة حارّة، قريبة من النفوس، لصيقة بالقلوب، لا يعوزها وضوح، ولا يؤودها تعقيد.

وقد صاغها طرفة بأسلوب سمح طلق مانوس، لا وعورة فيه ولا حوشي ولا غريب، بل فيه السبك البديع، وفيه الماء والرونق والطلاوة، تنبعث منه الموسيقى متتدة رزينة، شجية الإيقاع، منسربة من اللفظ الكريم الفصيح، والتركيب الرصين المحكم النسج، الحسن الصياغة والتأليف.

ولطرفة، عدا هذه الحكمة المبتوثة في قصائده، نظرات تأخذ شكل الحكمة، تعبر عن فلسفته التي ارتضاها لنفسه في الحياة، وراح يعلنها إعلاناً مدوياً من غير تحفظ ولا تستر، مدللاً بذلك على حماسه لها وقوة إيمانه بها:<sup>(٢)</sup>

ألا أيهاذا الزاجري أحضُرُ الوغَى      وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلِدي؟  
فإن كنت لا تستطيعُ دفعَ منيتي      فذّرني أبادِرُها بما ملكت يدي<sup>(٣)</sup>

فإذا كان الموت حتماً لا بد منه، وإذا كنت أيها الزاجر اللاحي لا تستطيع أن تدفعه عني، فدعني أبادر المنية بإنفاق ما لدي من مال قبل حلولها، وأعب من حوض

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١٥٢

(٢) معلقته: ٥٤.

(٣) أبادرها: أي أبادر المنية بإنفاق ما ملكت يدي.

اللذات ما اتسع لي العَبّ، غير ملتفت إلى شيء آخر في الوجود.

ثم يبين أنه لولا ثلاث من لذات حياته التي يعز عليه مفارقتها، لما بالى متى  
حَمّ ميقاته ودنا أجله، وأرنت عليه النائحات: (١)

لَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ حَاجَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُوْدِي (٢)

وأولى هذه اللذات: سبقه العاذلات اللائحات بشربة خمر حمراء، متى صبّ  
عليها الماء علاها الزبد (٣):

فَمِنْهُنَّ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةِ كُمَيْتٍ، حَمَّتِي مَا تُغَلِّ بِالْمَاءِ تُزِيدُ (٤)

وثانيها: عطفه عنان فرسه استجابة للمستغيث، كازاً على العدو بجواده  
المحبّب، المنطلق من مكمنه، كأنه ذئب الغضا المستوحش الهائج في طلب الماء (٥):

وَكُرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَبَّبًا كَسِيدِ الْغُضَا، نَبَّهْتَهُ، الْمُتَوَرِّدُ (٦)

وثالثها: تقصير يوم الدجن باللهو بالفاتنة الجميلة البضة، المتألقة في  
خلاخيلها وأسورتها، تحت البيت المرفوع المشدود بالأطناب: (٧)

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجَبٌ بِيَهْكَتِهِ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُعَمَّدِ (٨)

كَأَنَّ الْبُرَيْنَ وَالدَّمَالِيَجَ عُلَّقَتْ عَلَى عَشْرِ، أَوْ خُرُوعٍ لَمْ يُخْضِدِ (٩)

ثم يدعو لائمه أن يذره يعطي نفسه سؤلها، فيروها من شرب الخمر قبل أن

(١) معلقته: ٥٦.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٤٥.

(٣) معلقته: ٥٧.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٤٦.

(٥) معلقته: ٥٨.

(٦) تقدم البيت وشرحه ص ٤٦.

(٧) معلقته: ٥٩، ٦٠.

(٨) تقدم البيت وشرحه ص ٤٦.

(٩) البرين: الخلاخيل. والدماليج: جمع دُمْلَج، وهو المعضد من الحلي. والعشر: شجر أملس لين  
العود. والخروع: نبت ناعم. ولم يخضد: لم يشن ليكسر.

يدركه الموت، وينقطع شرابه، ولما يبلغ الريّ: (١)

فَدَرْنِي، أُرْوِي هَامَتِي فِي حَيَاتِهَا مَخَافَةَ شُرْبِ فِي الْمَمَاتِ مُصَرِّدٍ (٢)

ويحتج لفكرته هذه بأنه كريم يجب أن يروي نفسه في حياته، ويخاطب لائمه مخاطبة الواثق من صحة آرائه قائلاً: ستعلم من سيكون العطشان بعد الموت: (٣)

كَرِيمٌ يُرْوِي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا صَدَى أَيْنَا الصَّدِي (٤)

ثم ينظر إلى الموت الذي يسوي بين البخيل بماله والغويّ المبذر ماله في سبيل اللذات، يسوي بينهما في القبر، وينظر إليه يتخطف كرام الناس، ويصطفي أنفس مال البخيل المتشدد. ثم ينظر إلى المال، فيراه كنزاً يتناقص يوماً بعد يوم، محاولاً أن يؤصل لنظريته، ويبرهن على صحتها في وجوب الانطلاق في تبذير المال على اللذة واللهو والاستمتاع: (٥)

أَرَى قَبْرَ نَحَامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ (٦)

تَرَى جُنُوتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضِدٍ (٧)

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ (٨)

أَرَى الْمَالَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالذَّهْرُ يَنْفَدُ

وواضح أن منطلق طرفة في فلسفته التي ارتضاها لنفسه في الحياة أن الإنسان صائر للموت لا محالة، وإذا كان هذا مصيره المحتوم، فينبغي أن يبادر اللذات،

(١) معلقته: ٦١.

(٢) المصرد: الذي يقطع قبل الريّ.

(٣) معلقته: ٦٢.

(٤) الصدى ها هنا: جثمان الرجل بعد موته. وأينا الصدي: أينا العطشان.

(٥) معلقته: ٦٣ - ٦٦.

(٦) النحام: البخيل. والغويّ: المبذر.

(٧) الجنوة: تراب القبر. والمنضد: الذي نُضد على القبر، أي جعل بعضه فوق بعض.

(٨) يعتام الكرام: يختارهم ويخصهم. وعقيلة كل شيء: خياره وأنفسه. والفاحش: السيء الخلق.

والمتشدد: البخيل.

ويتهبها انتهاياً، وينفق في سبيل اقتناص تلك اللذات ما في يده من مال .  
وهي فلسفة جاهلية منبثقة عن تصور محدود هابط لحقيقة الحياة الإنسانية، لا  
نلمح فيها جانباً مشرقاً سوى خلق الفروسية الذي ألمع إليه قبل قليل بقوله:  
وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَبَّبًا كَسِيدِ الْغَضَا، نَبَّهَتْهُ، الْمُتَوَرِّدِ  
وإذا كنا نقبل من طرفة خلق الفروسية الذي تغنى به، واعتبره من لذاته  
الثلاث، فإننا لا نقبل جوانب فلسفته الجاهلية الأخرى التي عرضها في معلقته، على  
ما تألق فيها من صنيع فني بارع، تجلّى في اللفظ الجزل الفصيح، والصورة المترفة  
الشاحصة، والتعبير الرائق الجميل .  
ذلك أن الحياة الإنسانية أجلّ وأكبر من أن تُكْرَسَ للعبث واللهو والشراب  
والمجون .

## الحنين

سلف القول إن الأسفار تقاذفت طرفة، فأبعدته عن الديار التي حُلَّت فيها  
تماثمةً، وتفتحت طفولته، وازدهر صباه، ودرج على ثراها، وتنسّم عبير هوائها،  
وكان له في كل شبر من ربوعها ذكرى، تدمع العين، وتدمي القلب، وتلذّع  
النفس.

كان يتلقت في متآه القصبي، فلا يجد حوله الأهل الخالص، ولا الأحبة  
الأوفياء، بل كان لا يجد إلا وجوهاً متجهمة، وسحنأً غريبة متقبضة. ويبدو أنه كان  
يعاني من سقم ألم به، زادته الغربة المأً ووحشة وضيقاً وتعذيباً.

فلا بدع أن تفيض نفسه الشاعرة الحساسة المرهفة بشعر حزين، يترجم ما  
يعتمل في خبيء نفسه من مشاعر الألم والشوق والشكوى والحنين.

ومن هذا النمط من الشعر العاطفي الحزين قصيدته الخامسة في رواية  
الأصمعي، التي ييوح فيها بخبيء القلب وخلجات النفس وهمسات الضمير،  
متخذاً للأهل والديار والأحبة الذين يحنّ إليهم رموزاً يخاطبها عن بعد ويناجيها<sup>(١)</sup>:

قفي ودّعينا اليوم يا ابنة مالكِ      وعُوجي عَلَيْنَا مِنْ صُدُورِ جَمَالِكِ  
قفي لا يَكُنْ هَذَا تَعَلَّةً وَصَلْنَا      لِبَيْنِ وَلَا ذَا حَظَّنَا مِنْ نَوَالِكِ<sup>(١)</sup>

(١) ديوانه: ٨١.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٨٧.

أُخْبِرَكَ أَنَّ الْحَيَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ  
 وَلَا غَرَوَ إِلَّا جَارَتِي وَسُؤَالَهَا  
 تُعَيِّرُ سَيْرِي فِي الْبِلَادِ وَرِحْلَتِي  
 وَلَيْسَ امْرُؤٌ أَفْنَى الشَّبَابِ مُجَاوِرًا  
 إِلَّا رَبُّ يَوْمٍ لَوْ سَقِمْتُ لِعَادَنِي  
 ظَلَلْتُ بِذِي الْأَرطَى فُوَيْقَ مُثَقَّبٍ  
 تَرُدُّ عَلَيَّ الرِّيحُ ثَوْبِي قَاعِدًا  
 نَوَى غَرْبَةَ ضَرَارَةَ لِي كَذَلِكَ (١)  
 أَلَا هَلْ لَنَا أَهْلٌ؟ سُئِلْتُ كَذَلِكَ (٢)  
 أَلَا رَبُّ دَارٍ لِي سِوَى حُرِّ دَارِكِ (٣)  
 سِوَى حَيْهٍ إِلَّا كَأَخْرَ هَالِكِ (٤)  
 نِسَاءً كِرَامٍ مِنْ حُحْيٍ وَمَالِكِ (٥)  
 بَيْبِئَةَ سُوءِ هَالِكًا أَوْ كَهَالِكِ (٦)  
 إِلَى صَدْفِي كَالْحَنِيَّةِ بَارِكِ (٧)

يستهل طرفة قصيدته هذه بموقف وداع، يوحي منذ البدء بنفسيته المتألدة الحزينة الملوّعة بفراق قومه ودياره وأحبته، وما ابنة مالك التي طلب إليها أن تقف لوداعه، وبنات مالك، وبنات حُحْيٍ، اللّاتي ترددت أسماؤهنّ في الأبيات إلا رموز عن دياره وقومه وأحبته الذين برّح بنفسه فراقهم، وها هوذا يحنّ إليهم، ويفضي بالصباغة التي يعانيتها، والشوق الذي يكابده من فراقه إياهم، وبعده عنهم.

إنه ليخبر ابنة مالك، والألم يقطع نياط قلبه، بالغربة البعيدة الضرّارة التي أضرتّ بالحلي كله وبه هو بالذات.

ثم يتبع ذلك ببيتين يفيضان بالأسى واللوعة من الاغتراب والبعد عن الأهل والديار يتمثل في الدعاء على جارته أن تُبتلى بما ابتلي به من غربة قاتلة، فتُسأل السؤال الذي سألته إياه: أما لك أهل تأوي إليهم؟ وإنه لسؤال فجر في قلبه ينابيع

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٨٧.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٨٧.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ٨٨.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٨٨.

(٥) حُحْيٍ: بطن من قيس بن ثعلبة. ومالك: يعني مالك بن سعد بن مالك، من رهط طرفة.

(٦) ذو الأَرطَى: موضع فيه أَرطَى، وهو شجر يدبغ به. ومثَقَّب: موضع.

(٧) الصَدْفِي: بعير منسوب إلى صدف، وهو حي من حضر موت. والحَنِيَّة: القوس، شبه البعير بها

لضميره.

الحنين للأهل والديار، وأترع نفسه بالأسى واللوعة لفراقهم، فدعا عليها: سُئِلَتْ  
كذلك.

ويعضي في تصعيد آهات الشوق والحنين الحرى من أعماق نفسه الملدعة،  
فيجيب جارتته بأسى بالغ، وحرقة كاوية، وألم دفين:

أَلَا رَبُّ دَارٍ لِي سِوَى حُرِّ دَارِكِ

وكم في قوله: «ألا رب دار لي» من أسرار وذكريات وأشواق، يهفو لها قلب  
المغترب المحزون البعيد.

وتتجلى لعينه فداحة الغربة التي سلخت أماليد الشباب بعيداً عن الحي  
الأهل الطروب، والأهل الأحبة الخُلص، فيبلورها في بيت من الحكمة يقول: إن  
الذي يفني زهرة شبابه في غربة بعيداً عن دياره وقومه كشخص هالك، لما يلقي من  
ذل وهوان وشقاء ووحشة.

ويعود فيؤكد مضمون تلك الحكمة التي أطلقها بعرض المفارقة الأليمة بين  
الإقامة بين الأهل والاعتراب، تتجلى لعين المغترب النائي المريض، تزيده الغربة  
سقمًا على سقم، وتلمع في خاطره الحقيقة المرة سافرة مؤلمة: إنه لَقِيَ ضائع ضعيف  
متألم بائس مكروب، ليس بجانبه من يعود فيخفف عنه من أضرار المرض  
والكرب، ولو كان في دياره بين أهله وقومه، لحفَّ به أهله ومحبوه، يعودونه،  
ويؤنسونه، ويفدونه بأنفسهم.

وهذا ما عاناه طرفة في غربته، ويبدو أنه عاش هذه المعاناة الشعورية بكل  
مفاراتها، فذكر عائداته حين سقمه في بلاده، وهن نساء كرام من حُبِّي ومالك من  
بني قومه، وما لعيادتهن من أثر طيب في نفسه، تخفف عنه وطأة المرض، وتجلو عن  
نفسه وحشة السقم والوحدة، وهو الآن بذئ الأروطى فُوَيْقُ مُثَقَّبٍ سقيم بيئته سوء،  
هالك، أو شبه هالك، قاعد في مهب الريح، مستند إلى بعيره الضامر المهزول  
البارك، وليس ثمة سواه في هذا المكان النائي الموحش بيته ألمه ووحشته وأشواقه. فيا  
للمفارقة الأليمة بين الإقامة بين الأهل والاعتراب!

ومن هذا الضرب من الشعر الذي يحن فيه طرفه إلى دياره وقومه قوله<sup>(١)</sup>:

ألا إنما أبكي ليومٍ لقيتُهُ      بجرثمٍ قاسٍ كلُّ ما بَعْدُهُ جَلَلٌ<sup>(٢)</sup>  
إذا جاء ما لا بُدَّ منه فَمَرَجَبًا      به حينَ يأتي لا كِذَابٌ ولا عِلَلٌ<sup>(٣)</sup>  
ألا إنني شَرِبْتُ أَسْوَدَ حَالِكًا      ألا بَجَلِي مِنَ الشَّرَابِ أَلَا بَجَلٌ<sup>(٤)</sup>

إنها أبيات تصور ما لاقى طرفه في غربته من بؤس، وما عانى من عذاب، أبكاه، وجعله يرى كل عذاب دونه هيئاً سهلاً.

وقد تحمل ما قُدِّرَ عليه من عذاب، وصبرَ عليه، ولكنه سرعان ما عاد يشكو من العذاب الذي عاناه معبراً عنه بالشراب الأسود الحالك، صائحاً بملء فيه: ألا حسبي من هذ السم القاتل حسبي.

وليس أدل على لوعته الكاوية المحرقة وتململه من العذاب الشديد الذي نزل به، من تكراره الأداة (ألا) ثلاث مرات في البيت الثالث، وقبله مرة في البيت الأول، للفت الانتباه إلى سوء حاله، فضلاً على ما في تكرار هذه الأداة من دلالة نفسية، إذ ينفس بها عن نفسه المواراة بالضيق والكرب، ويفضي بخبيء القلب المعنى المكلموم: ألا إنني شربت... ألا بجلي.. ألا بجل.

لكأنه يصيح بصوت مبحوح غاص بالحسرة والكرب: ألا حسبي من شراب أغص فيه، وأكابد لذع سمّه في أحشائي، ولكأن العبرة تخنقه، وهو يصيح هذه الصيحة الحزينة.

ويعمر هذا اللون من شعر الحنين نغم حزين حنون، ينسرب من الألفاظ الموحية الحزينة، وحروف المدّ التي حفلت بها الأبيات، ويصور الجو الشعوري الصادق الذي عاناه الشاعر حين فاضت نفسه بهذا النمط من الشعر.

(١) ديوانه: ٨٩.

(٢) جرثم: موضع. والجلل هنا: الصغير.

(٣) ولا علل: أي احتمله ولا اعتل عليه.

(٤) بجلي: حسبي.

## اللوم والعتاب

لم تخل حياة طرفة من المنغصات، بل كانت حافلة بها. وكان من أشدها على نفسه مواقف بعض أقاربه وأصحابه منه، فقد تخلّى بعضهم عنه، وقلب بعضهم له ظهر المجن، وتقاعس آخرون عن نصرته ومؤازرته في ساعة الشدة والكرب.

ولم تجد نفس الشاعر ابن العشرين المتأججة بالحماسة، الفؤارة بدم الشباب الحار بدأً من أن تنصب على هؤلاء جميعاً باللوم والعتاب والتقريع، فاضحة زيف صداقتهم، هاتكة السر عن سوء طواياهم، كاشفة مخازيم ومواقفهم الفاسدة الرعناء.

لقد حز في نفس طرفة موقف أعمامه الذي عدّوا على ما آل إليه وإلى أمه من إرث أبيه، مستغلين يتمه وضعف أمه وغيبة رهطها عنها، وأبوا أن يعطوا لكل ذي حق حقه، فكان لهذا الافتئات أثره في نفس طرفة المتفتحة على الحياة، الكارهة للظلم والباطل والطغيان، فإذا هي تفيض بشعر، فيه اللوم والتقريع والتبصير والتهديد هؤلاء الأعمام: (١)

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فَيُكْمُ صَغَرَ الْبَنُونَ وَرَهْطُ وَرْدَةَ غَيْبٌ (٢)

(١) ديوانه: ١٠٢. وقد تقدمت الأبيات ص ٤٣ وص ١٦٧.

(٢) وردة: أم طرفة، وهي من بني مالك بن ضبيعة.

قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ صَغِيرُهُ  
 وَالظُّلْمَ فَرَّقَ بَيْنَ حَيٍّ وَائِلٍ  
 قَدْ يُورِدُ الظُّلْمَ الْمُبِينُ آجِنًا  
 وَقِرَافٌ مَنْ لَا يَسْتَفِيقُ ذَعَارَةً  
 وَالإِنَّمُ دَاءٌ لَيْسَ يُرْجَى بُرُؤُهُ  
 وَالصِّدْقُ يَأْلَفُهُ اللَّيْبُ الْمُرْتَجَى  
 وَلَقَدْ بَدَأَ لِي أَنَّهُ سَيَفْوِنِي  
 أَدْوَا الْحُقُوقِ تَفَرُّ لَكُمْ أَعْرَاضُكُمْ

ينصب طرفه على أعمامه بهذا الاستفهام المفعم بالاستنكار والتوبيخ لأكلهم  
 حق أمه بالباطل، مستغلين صغر أبنائها وغيبة قومها: ما تنظرون بحق وردة  
 فيكم؟!

إنها المجابهة المحرجة المخجلة لمن أكلوا أموال الأرامل واليتامى ظلماً.  
 ويكره عليهم مهدداً بالانتقام والانتصاف للحق المهدر المضيع، مبيناً أن الأمر  
 الصغير قد يجرّ إلى الأمر العظيم، حتى تصبّب الدماء وتزهق الأرواح.  
 ويضرب لهم المثل بالحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين بكر وتغلب بسبب  
 الظلم المفرّق بين أبناء العمومة، المقطّع وشائج الرحم والقربى.  
 ويلجّ على فكرة الظلم وما ينتج عنها من آثار مروّعة، فهو يجرّ إلى أوخم  
 العواقب، ويؤدّي إلى مرّ النتائج، ويمثّل للنتائج المرّة التي يدفع إليها الظلم بالماء  
 الأسن المتغيّر المالح الأجاج، يخالطه السمّ الزّعاف. ولا يخفى ما في هذا التمثيل من

- (١) تقدم البيت وشرحه ص ٤٣.
- (٢) تقدم البيت وشرحه ص ١٦٧.
- (٣) تقدم البيت وشرحه ص ١٦٧.
- (٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٦٨.
- (٥) تقدم البيت وشرحه ص ٤٣.

تعبير عن انفعاله الشديد وتألمه مما لاقى من ظلم أعمامه .

وينتقل إلى التعقيب على ذلك الظلم بأبيات من الحكمة، يبين فيها أن مخالطة الخبيث السّادر في دعارته وغيّه تعدي الإنسان الفاضل السويّ كما يعدي الأجرّب من الإبل الصحيح . والإثم داء لا براء منه، والبرّ شفاء لا معطب فيه . والصدق يألفه اللبيب المرجى لكل خير، والكذب يألفه الدنيء الأخيب . وهو يلوّح بهذه الحكمة لأعمامه ليتخلّقوا بقيمها الإنسانية الخلقية، ثم يلمس وجدانهم لمسه عميقة مردداً على أسماعهم حتمية الموت الذي أهلك عاداً والقرون الأولى، وأنه سيدرك كل حي .

ثم يهيب بهم أن أدّوا الحقوق إلى أهلها، تُصنّ أعراضكم، فلا تمسّ بسوء، ويلوّح لهم بأن الكريم الحرّ الأبّي إذا ظلم فإنه يغضب ويهيج ولا يسكت على ضيم .

إنها قطعة قدّها طرفة من معين شعوره المنفعل المتألم الغضوب، فجاءت أبياتها ملفوفة بلفحات مشاعره المتّقدة، تصور شدة انفعاله وتأثره بما علم من ظلم أعمامه حين كبر، وتجمست له حقيقة ظلمهم وأكل حقه وحق أمه، وقد قذف هذا الانفعال الصادق على لسانه اللفظ الكريم الفحل، والتعبير الرصين المحكم، الحافل بالموسيقا الهادئة الرصينة الغضوب .

ومن عتاب طرفة الحارّ المزوج بالفخر أبياته التي يروي فيها قصة تغّيّر ابن عمه مالك عليه، وإعراضه عنه، كلما دنا هو منه وأقبل عليه، وكان مالكا يتهرب منه في وقت الحاجة إليه<sup>(١)</sup> :

فَمَالِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكاً      مَتَى أَدُنُّ مِنْهُ يَنَأُ عَنِّي وَيَتَعَدِّ  
يَلُومُ، وَمَا أَذْرِي عَلامَ يَلُومُنِي؟      كَمَا لَامَنِي فِي الْحَيِّ قُرْطُ بْنُ أَعْبَدٍ<sup>(٢)</sup>  
وَأَبْأَسْنِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ      كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ عَلَى رَمْسٍ مُلْحَدٍ<sup>(٣)</sup>

(١) معلقته: ٦٨ - ٨١ .

(٢) قرط بن أعبد: رجل من حيّ طرفة .

(٣) الرمس: القبر . والملحد: اللحد، وهو الشقّ في جانب القبر .

عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنِّي  
 وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدِكَ إِنِّي  
 وَإِنْ أَدَعُ لِلْجُلَى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا  
 وَإِنْ يَقْدِفُوا بِالْقَدْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ  
 بِمَا حَدَّثَ أَحَدْتُهُ وَكَمْ حَدَّثَ  
 فَلَوْ كَانَ مَوْلَايَ أَمْرًا هُوَ غَيْرُهُ  
 وَلَكِنْ مَوْلَايَ أَمْرٌ هُوَ خَانِقِي  
 وَظَلَمْتُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاضَةً  
 فَذَرْنِي وَعِرْضِي إِنِّي لَكَ شَاكِرٌ  
 فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ  
 فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادَنِي

لقد ألم طرفة إعراض ابن عمه مالك عنه، وتنكره له، ولومه إياه، على غير  
 ذنب سوى نشدانه حمولة معبد، حتى أياسه إعراضه عنه من كل خير كان يرجوه  
 منه، وأصبح في نظره كالميت، لا يرجي من ورائه أي نفع، مع أن موقفه هو من ابن

- (١) نشدت الضالة: طلبتها وأشدت بذكرها. والحمولة: الإبل. ومعبد: أخو طرفة.
- (٢) قرَّبت بالقرى: أي أدلت على مالك ابن عمي بالقرابة. النكثية: بلوغ الجهد من النفس.
- (٣) الجلى: الأمر العظيم. والجهد: المشقة والشدة.
- (٤) القدع والقَدْع: القبح والشتم.
- (٥) كمحدث: أي هو كمحدث هجائي، بلا داع. ومطردى: إطرادي.
- (٦) مولاي: ابن عمي.
- (٧) خانقي على الشكر والتسأل: أي يسألني أن أشكره وأفتدي منه بمالي.
- (٨) مضاضة: حرقة.
- (٩) ضرغد: حرّة بأرض غطفان.
- (١٠) قيس بن خالد: هو قيس بن خالد بن عبد الله ذي الجعدين من بني شيبان. وعمرو بن مرثد: ابن عم  
طرفة.
- (١١) سادة الأسود: أي سادة أبناء سادة.

عمه على النقيض من ذلك؛ فقد وهبه فتوته وحياته، ولم يدخر وسعاً في دفع الأذى عنه. وهذه هي خليقة طرفة التي يزهو بها وبتيه.

إنه من حماة الجلّسى إذا دعي إليها، وإنما للأمر العظيم، وإن تعرّض ابن عمه لشدة جهد في دفعها عنه، وإن قذف الأعداء عرض ابن عمه يوماً، لم يهلمهم حتى يتهدّدهم، بل أوردتهم حياض الموت قبل التهديد. فستان ما بين الموقفين، وحق لطرفة أن يغضب ويحزن لتغير ابن عمه عليه.

وما زاد موقف ابن عمه شدة على نفسه أن ابن عمه نال منه وقذفه بالشكاة بلا سبب ولا جرم كان من طرفة نحوه. ومن ثم كان يحسّ المأ شديداً من تغير ابن عمه عليه، عبّر عنه بمرارة وأسى ولوعة قاللاً: لو كان ابن عمي غير مالك، لأعاني على ما نزل بي من الهم، ولترقّب بي، وتأنّى في أمري، ولكن الذي كان من ابن عمي هو النقيض؛ فقد اشتد في لومي وإيلامي؛ لأنني لا أشكره، وأشكر الناس وأتعرّض لمعروفهم، وهو مع ذلك لا يغنيني عن شكرهم والتعرّض لمعروفهم، فلومه لي في مثل هذه الحالة ظلم وأي ظلم.

وهنا يبلغ انفعال الغضب والألم ذروته في نفس طرفة، فيقذف بهذا البيت السائر الشroud معبراً به عن ظلم ذوي القربى وشدّته على نفس الأقربين:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند  
وفي غمرة الألم الملدّع العميق يناشد ابن عمه أن يترك له عرضه وافراً من القدح والشمم، وهو شاكر له، ولو بقي بعيداً، تتقاذفه النوى، وترمي به الأسفار.

وتتجلّى لطرفة الحقيقة المرّة التي جعلته في هذا الموقف الصعب، وهي خلويده من المال، وصفر حياته من الولد، فيعبر عن تلك الحقيقة القاسية بقوله: لو شاء ربي وهبني الولد فكنت كقيس بن خالد، ولو شاء وهبني المال فكنت كعمرو بن مرثد، ولأقبل كرام الناس وساداتهم عليّ، يعودونني، ويلتمسون ودي. ويأتي تعبيره عن هذه الحقيقة نفثة من مصدر متألّم من كبوة الحظ، وعشرة الأيام، وشقوة الطالع، لا بنون لديه ولا مال. وقد أثرت هذه النفثة الحارة الصادقة في نفس ابن عمه عمرو بن مرثد، فما سمع قول طرفة حتى استدعاه، وأغدق عليه هو وأبناؤه وحفدته المال الوفير.

وواضح أن هذا العتاب يحمل بين طياته نفساً منفعة غضبي متألة، ومن ثم كانت نبضات الشعور الصادق الحار العميق تواكب هذه الأبيات.

ومن لوم طرفة الحار ما صبّه فوق رؤوس أصحابه الذين خذلوه ساعة الشدة، ولم يتحركوا لنجدته وإنقاذه من السجن الرهيب الذي ألقي فيه ولم يخرج منه<sup>(١)</sup>:

أَسْلَمَنِي قَوْمِي وَلَمْ يَغْضَبُوا      لِسَوْءِ حَلَّتْ بِهِمْ فَادِحَةٌ<sup>(٢)</sup>  
كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَئُهُ      لَا تَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَةٌ<sup>(٣)</sup>  
كُلُّهُمْ أَرْوَعٌ مِنْ ثَعْلَبٍ      مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ<sup>(٤)</sup>

إنها أبيات قليلة في عددها، ولكنها غنية طافحة بشعور قائلها. إنها أشبه شيء بالأتين المكبوت، يتفجر سخطاً على أخلائه الذين خذلوه عند الشدة، ولم يغضبوا لما أصابه، ولقد ارتدت السوء عليهم لخذلانهم إياه، وإنها لسوء فادحة، تصمهم جميعاً بالذل والخزي والعار.

ومن نفس مترعة بالألم وخيبة الأمل يعلن أن كل خليل خالته خذله عند الشدة، ويدعو على الجميع بالأبترك الله لهم سنّاً واضحة، ليكونوا مثلة بين الناس.

ويعمهم جميعاً بالحكم، فكلهم أروغ من ثعلب، ويأتي بالمثل المشهور: ما أشبه الليلة بالبارحة في الظلمة والسواد والحلّة، فلقد تشابهوا جميعاً في صفة الزوغان، وسواد القلب، وسوء الطوية.

ويحمل التعميم الذي أطلقه في البيت الأخير زفرة نفس مكلومة مهيضة متألة مما أصابها من تحاذل الصحب والخلان عنه ساعة العسرة.

ولطرفة أبيات أخرى في لوم قومه الذين تقاعسوا أيضاً عن نصرته بعد أن

(١) ديوانه: ١١٤.

(٢) السوء: كل عمل أو أمر شائن. والفادحة: الثقيلة.

(٣) الواضحة: الأسنان الضواحك التي تبدو عند الضحك.

(٤) ما أشبه الليلة بالبارحة: ضربه مثلاً لشبه بعضهم بعضاً في روغانهم وخذلانهم إياه.

سُجِنَ بِأَمْرِ عَمْرُو بْنِ هِنْدٍ، رَوَاهَا ابْنُ السَّكَيْتِ، وَهِيَ: (١)

أَبْلُغْ سَرَاةَ بَنِي بَكْرٍ مُغْلَغَلَةً  
عَنَيْتُ ثُعَلْبَةَ الْعِجْلِيِّ مَأْلَكَةً  
وَالْمَرْءُ قَيْسًا يُرَى نَوَاحَةَ بُعِثَتْ  
وَهَانِتًا هَانِتًا فِي الْحَيِّ مُوسِمَةً  
مَا دَافَعُوا فَيَسْرَى فِيهِمْ مَكَانَهُمْ  
فَجَدَّعَ اللَّهُ مِنْ آذَانِهَا الْيُمْنَا (٢)  
عِنْدَ الْحَوَادِثِ إِذْ أَلَى وَإِذْ غَبْنَا (٣)  
تَبْكِي لِمَيْتٍ، وَلَا تَبْكِي بِهِ شَجْنًا (٤)  
نَاطَتْ سِنْحَابًا وَنَاطَتْ فَوْقَهُ نُكْنًا (٥)  
وَلَا سَمِعْنَا لَهَا مِنْ ذِكْرِهَا حَسَنًا

إنها رسالة تنم عن ضيق طرفه وتألمه من تقاعس قومه عن نصرته، وقعودهم عن فكاكه من الأسر، وتقصيرهم في إنقاذ حياته، ويتجلى ألمه اللاذع في دعائه على قومه: فجدَّع الله من آذانها اليمنا، وفي إعلانه تقصير بني قومه في حقه، وتفريطهم به بالتخلي عن إنقاذه. ويعدَّد اسمي قيس وهانء، ويبدو أنها من بني قومه السَّادِرِينَ المنصرفين عن التفكير في نصرته وإنقاذه.

فالأول يبكي، بل يتظاهر بالبكاء، وليته بكاء صادر من القلب، إذا خفف من وطأة الكارثة ووقع المصيبة التي حلت به، وإنما هو يتباكى كالنائحة المستأجرة للبكاء على الميت. وفي هذا من الإيلام لنفس طرفه ما فيه.

والثاني سادر لاه، لاهم له إلا زيتته واستمتاعه، فهو كالمومس الفاجرة التي أخذت زينتها، وسارت بين الناس، يوضع منها الطيب، وتتألق فوق جيدها ألوان الحلي.

(١) ديوانه برواية ابن السكيت: ٤٦.

(٢) سراة بني بكر: أشرافهم. ومغلغلة: رسالة ذاتعة. وجدَّع: قطع.

(٣) ثعلبة العجلي: أحد أجداد طرفه، وأراد بني ثعلبة. ومالكة: رسالة. وألى: قصر وأبطأ. وغبن: ظلم.

(٤) شبه قيساً بنائحة مستأجرة تبكي بكاء ليس على حقيقته.

(٥) المومسة: الفاجرة. وناطت: علفت. والسحاب: قلادة تتخذ من مسك وقرنفل ومحب. والثكن: جمع ثكنة، وهي القلادة أيضاً.

ويختم مقطوعته هذه بتقرير الحقيقة المرة التي وُصِمَ بها قومه، وهي أنهم لم يتحركوا للدفاع عنه، فيشهد الناس مكانهم في موقف الدفاع المشرف، ولا سمع لهم أحد ذكراً حسناً تدور به المجالس.

والقطعة مَوارة بانفعال الغضب الحار الصادق، نابضة بضدق المعاناة، تصوّر ما اعتلج في نفس طرفة من مشاعر الألم والسخط والازدراء لهؤلاء الذين أدخلوا إلى الأرض، وآثروا السلامة، وقعدوا عن نصرة شاعرهم الشاب.